لامرتين

إلياس أبو شبكة

لامرتين

تأليف
إلياس أبو شبكة

هنـــداوي

لامرتين

إلياس أبو شبكة

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٠ ١٧٦٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

جميع الحقوق الخاصة بالإخراج الفني للكتاب وبصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Artistic Direction, Cover Artwork and Design Copyright © 2019 Hindawi Foundation C.I.C.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

لامرتين في حداثته	٧
لامرتين في طريق النضوج	١١
لامرتين في طريق المجد	١٥
لامرتين في ذروة المجد	١٩
المقاصد الكبرى	٢٧
لامرتين في عشرين سنة	٥١
خاتمة	٥٧

لامرتين في حداثته

١٧٩٠–١٨٠٨

قبل أن تنطلق الثورة الكبرى في فرنسا كان الشيفاليه بيير ده لامرتين، والد الشاعر، يتظاهر بميل شديد للفكرة الجديدة التي انبعثت منها جذوة المبدأ الثوري، وكان كمعظم أشراف المقاطعات ميالًا إلى التفكير الحر، على أنه لم يفقد من صدره إيمانه بالملك والمبدأ الملكي. وهذا الإيمان بالملكية كان راسخًا في نفسه، ففي شهر نوَّار من العام ١٧٩٢، اتصل به أن العرش في خطر يتهدَّده، فأسرع إلى باريس ووضع سيفه تحت تصرف الملك، وما لبث أن راح يدافع عن قصر التويلري، فأُصيب بجرح وكاد يقع في قبضة الثوار لو لم يخلع عليه بستاني القصر ثوبه ليحجبه عن الأنظار.

على أن سوء الطالع ما لبث أن هدى إليه الثوار في مدينة ماكون، فقبضوا عليه في ٥ تشرين الأول ١٧٩٣، وبقي يعاني آلام السجن إلى ٣٠ تشرين الأول ١٧٩٤.

مِن هذا الفارس وُلد شاعرنا الكبير ألفونس ده لامرتين، في العاشر من تشرين الأول ١٧٩٠. قال الكاتب جورج ليكونت، أحد أعضاء المجمع العلمي الفرنسي، في محاضرة عن لامرتين ألقاها مؤخرًا في جامعة الأنَّال: «إن الشاعر ده لامرتين لم يُولد في قصبة ميللي كما شاء هو نفسه أن يقول في إحدى قصائده الجميلة، بل في مدينة ماكون. وقد يكون الشاعر أبى أن يعترف بالحقيقة إيثارًا لقصبة ميللي التي كان يحبها ويلقِّبها «بعش الحمام»، والتي كان يرى فيها إطارًا جميلًا لشواعره.»

وكانت أمه من النساء التقيات المتعبِّدات، فعلَّمته عبادة الخالق من خلال الجمال الذي يمزجه الله بالطبيعة، وكانت ميَّالة إلى الأدب، وتؤثر من رجاله فنيلون وراسين، ومن روائعه أسفار التوراة، وكثيرًا ما كانت تقرأ هذه الأسفار على مسمع أبنائها، ومن هؤلاء ألفونس الذي ما عتَّم أن أُشرب في قلبه الميل إلى الأدب وإلى الشعر بنوع خاص.

فلما بلغ الشاعر الثامنة من عمره، كانت الثورة قد سمحت لبعض الكهنة الذين خضعوا للدستور بأن يُنشِئوا مدارس في القرى، فدخل ألفونس إلى مدرسة بوسيير التي أنشأها الكاهنان فرنسوى أنطوان ديتر وأنطوان فرنسوى ديمون، وبقي ثلاث سنوات يتردد على هذه المدرسة مع أولاد الفلاحين، فيجتاز كلَّ يومٍ الطريق المنحدرة من ميللي إلى بوسيير والمغمورة بالثلج طوال أشهر الشتاء. وكأنَّ الأب ديمون شعر بميل خاص إلى الفتى لامرتين، فكان يختصُّه بعناية كبيرة، فيعلِّمه الفرنسية واللاتينية بغَيرة وإخلاص، ويصحبه معه في نزهاته، حتى أصبح الفتى شديد التعلق بأستاذه الكاهن الشاب، وقد يكون لهذا الأخير على بجوسلين، أو قد يكون هو نفسه جوسلين الذي صوَّره الشاعر فيما بعد في روايته الشعرية المعروفة بهذا الاسم. قال جورج ليكونت: «لا مشاحة في أن الكاهن ديمون أثَّر على حداثة لامرتين تأثيرًا شديدًا، حتى إن سكان ماكون لا يذكرون ذلك الكاهن إلا مرفوقًا باسم الشاعر، وحتى إن العابرين في طريق بوسيير إذا سألوا أحد الفتيان عن الطريق المؤدية إلى قبر الأب ديمون في النادر ما لا يجيبهم بسذاجة طبيعية: ضريح جوسلين؟ ...»

وكان ألفونس ده لامرتين كلما كبر تصعَّب طبعُهُ ومال إلى الاستقلال، حتى لم يجد أهله بدًّا من إقصائه عن البيت الوالدي وعن أمه التي كانت تُغرق في تدليلها إياه؛ ففي شهر آذار من العام ١٨٠١ جيء به إلى مأوى لاكاي الذي كان يديره الأستاذ بوبيه وشقيقتاه، إلا أنه لم يستفِدْ كثيرًا من تلك المدرسة التي كان يؤمُّها أبناء الأسر الكبيرة والغنية في ليون، والتي كانت تتقاضى ٤٢٠ فرنكًا كل ثلاثة أشهر، وهو مبلغ كبير إذا قيس بمرتبات المدارس في ذلك العهد. وما هو وقت قصير حتى بدأ لامرتين يشعر بالحنين إلى الطبيعة التي تعشَّقها في ميللي، ولكنه لم يجد مفيضًا من الامتثال لمشيئة أهله، وبقي سنتين متواليتين في ذلك المأوى الموحش، حتى اقتنع أهله أخيرًا بأن طريقة الضغط لن تنجح في ولدهم الذي كان ينطوي على أخلاق وطباع مستقلة حرة، فنقلوه إلى مدرسة بيللي. وإنَّا لننقل هذه الفقرة من مذكرات والدة الشاعر، قالت: «... وضعتُ هذا الابن العزيز بين أيدي «آباء الإيمان»، فالدير جميل والبلد جميل أيضًا. ولقد زرتُ المدرسة هذا الصباح، واجتمعتُ بألفونس، فقال لي إنه مسرور جدًّا ...»

بقي لامرتين في مدرسة بيللي التي يديرها آباء الإيمان من العام ١٨٠٣ إلى العام ١٨٠٨، ولقد درس في هذه المدرسة البيان والفلسفة ومبادئ في الحقوق والرياضيات. ويلاحِظ من يقرأ لامرتين أن الشاعر يذكر دائمًا أنه كان تلميذ اليسوعيين، سوى أن أمَّه كانت أدقَّ منه عندما كتبت في مذكراتها أن بيللي لم تكن مدرسة يسوعية؛ فآباء الإيمان كانوا جمعية مستقلة تأسست أولًا في النمسا عام ١٧٩٩، ثم انتقلت إلى فرنسا في العام ١٨٠٢ بمساعدة الكردينال فيش، خال نابوليون الأول، فأسَّست بضعة معاهد علمية سارت فيها على منهاج اليسوعيين.

وفي مدرسة بيللي تعرَّف لامرتين إلى الكاتب العظيم شاتوبريان الذي استطاع أن يملك الشاعر من جميع أطرافه، ويغرس في نفسه الميل إلى الأدب الرومانطيقي، وهو المذهب الأدبي الجديد الذي اعتنقه أدباء فرنسا في مطلع القرن التاسع عشر. فقد قرأ «روح النصرانية» وروايَتَي «أتالا» و«رينه»، وهي مؤلفات شعرية من الطراز العالي أسكرتِ الشاعر بجمالها الجذاب، وأيقظت فيه جذوة الشاعرية، ولقد أبقى لامرتين من القصائد التي نظمها في المدرسة تحت تأثير شاتوبريان ثلاثًا هي: البلبل، الوداع، ونشيد.

البلبل

نشر لامرتين هذه القصيدة في كتابه «مذكرات أدبية»، وقدَّمها بهذه الكلمة: «وجدتُ صدفةً في حقيبة قديمة ملأى بأوراق قضمَتْها الجراذين أبياتًا في البلبل، لا أذكر أني نظمتها في الماضي البعيد، على أن الخط والورقة الصفراء أكدا لي أن هذه الأبيات إنما هي إحدى لعب مخيلتي الأولى، فأرجو صفحًا عن القوافي والوزن.»

وقال يصف العوامل التي دفعته إلى نظم هذه القصيدة: «كانت النافذة القريبة من سريري في قاعة النوم تطلُّ على وادي بوجاي الأخضر، المحاط بأحراج الصفصاف، والمنتهي بجبال زرقاء، يخفق على أكنافها البخار الأبيض المنتشر من الشلالات البعيدة، وكنت كلما رقد رفاقي وبدت لي الليلة قمراء، نهضتُ من سريري من غير أن يشعر بي أحد، وتسلَّقت عضائد الكرسي إلى النافذة، ثم أرسلت نظري في الشفق الهادئ ... أستمع إلى نحيب الهواء، وأناشيد البلبل، وحفيف الورق، وهمس المجاري البعيدة، ورنين أجراس المواشي في الجبال، حتى إذا مُلِّيت كلَّ ذلك وذرفت كثيرًا من دموع الذكريات، عدتُ إلى سريري لأستعرض في مخيلتي، في أحلامي المستيقظة، صورَ تلك الرءوس الجميلة الساحرة.»

نشيد

يصف لامرتين في هذه القصيدة شلالات المياه المتكسِّرة على صخور وادي بيلي، أما الشعور الذي أوحى إليه قصيدته هذه، فهو أن الطبيعة تحتوي الله وتُظهره من غير أن تعرفه، وأن الإنسان يرى الله من خلال الأشياء.

الوداع

ودَّع لامرتين بهذه القصيدة مدرسة بيلي، التي خرج منها وهو في الثامنة عشرة من عمره. ولقد يرى المعجبون بالشاعر، في هذه القصيدة الجميلة، جذوةَ الشاعرية التي ستصبح فيما بعد شعلةً خالدة تنير طريق الأدب والأدباء.

لامرتين في طريق النضوج

١٨٠٨–١٨١٦

عندما ترك لامرتين مدرسة بيللي كان له من العمر سبع عشرة سنة وثلاثة أشهر، فراح يطمح إلى مركز في العالم؛ والمراكز في ذلك العهد كانت منوطة بنابوليون، ولم يكن نابوليون سوى مختلس في نظر أسرة لامرتين الأريستوقراطية.

ما العمل؟ لم يكن بدٌّ من التريُّث إلى أن يحدث انقلاب ما في الجو السياسي. على أنه لم يكن يرجى انقلاب في ذلك العهد؛ لأن نابوليون كان قابضًا على زمام فرنسا بيدٍ من حديد، ولم يكن مرَّ على معاهدة تلسيت سوى بضعة أشهر. وهذه المعاهدة التي جرت بين فرنسا وبروسيا وروسيا، كانت قد سلخت عن بروسيا جميع مقاطعاتها البولونية، فلم يجد لامرتين بدًّا من ملازمته داره، حيث انصرف إلى المطالعة والكتابة.

ومرَّت الأيام على عزلته، وكان كلما مرَّ عامٌ أحسَّ بالشاعرية تنضج في روحه على مصابيح الشعراء، رفاقه في عزلته. وكان قد التهم التوراة، وهوميروس، وأفلاطون، وشاتوبريان، ومدام ده ستال، وأوسيان، وروسو، وفولتير، وكثيرًا من الشعراء والروائيين الإنكليز، والطليان، واللاتين كفرجيل، ودنتي، وملتون، وأوفيد، وشكسبير وغيرهم. أما الشعراء الألمان فقد أحبَّ منهم غوتي، وتأثر بفرتر التي قرأها مرارًا عديدة إلى درجة أنه أوشك أن ينتحر تمثُّلًا ببطلها.

غرامه الأوَّل وسفره إلى إيطاليا

ما كاد الشاعر يبلغ العشرين من عمره، حتى تعرَّف إلى فتاة جذابة تُدعى هنرييت بوميه، وُلدت في أول نوَّار عام ١٧٩٠، فكان عمرها يزيد ستة أشهر عن عمر لامرتين، وكانت تجيد الرقص إجادة تامة؛ إذ إن أمها كانت تود أن تهيئها لتكون «أرتيست» في الأوبرا.

قال لامرتين يتكلَّم عنها في المذكرات التي كتبها بعد خمسين سنة على ذلك العهد: «إن قامتها النحيفة، ومشيتها الرشيقة، وجمال ذراعيها، وتناسق أعضائها، وسكبة قدميها، ولطافة جيدها، وابتسامتها الجذابة، كانت كلُّها تدلُّ على أنها ستكون نموذجًا للراقصة العصرية.» أجل، ونموذجًا لعروس الشعر العاطفي أيضًا؛ إذ إن جمالها المفكر الجذاب كان يحمل خيالًا من الحزن والألم.

وفي مساء أحد الأيام، بعد أن رقص لامرتين مع هنرييت بوميه، وسمعها تعزف على «البيانة» سقط في شَرَك غرامها وآلى على نفسه أن يتزوجها، إلا أنَّ ثمة عراقيل كانت تحول بينه وبين تحقيق هذه الرغبة؛ فلامرتين الفارغ الجيب، الذي لا مركز له، لم يكن يستطيع أن يجعل فتاة فقيرة لزامًا في عنقه، فهام على وجهه تائهًا في الحقول مع كلبه، باكيًا مع الشعراء أوسيان ويونغ وشكسبير! وما عتَّم الأمر أن أطلع أهله على رغبته في طلب يد هنرييت، فثار ثائر والده وعمه، ووقفا عثرة في وجهه. عند هذا غضب لامرتين الفتى، وصحَّت عزيمته على الانخراط في سلك الجندية «فإما أن يُقتل، وإما أن يحصل على رتبة عالية تضمن حياته وحياة زوجته.» زوجته؟ هكذا كان الشاعر يدعو الآنسة بوميه؛ لأنه كان يعتقد أن لا قوة في العالم تستطيع أن تفصله عنها.

لا قوة في العالم؟ هذا وهم محض … فلم يمرَّ شهران حتى عدل لامرتين عن عزمه، وراح يفكِّر في سفرة إلى إيطاليا، في سفرة طويلة تُنسيه هنرييت بوميه.

وصل لامرتين إلى روما في أول تشرين الثاني ليلًا، ونزل ضيفًا على أحد أقربائه هناك، ولكنَّ الوحدة ما لبثت أن أصبحت ثقلًا عليه، فجنح إلى نوادي القمار. وفي الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٨١٢ كتب إلى صديقه فيريو يقول: «لم أكن أملك فِلسًا، لو لم أربح أمس أربعين غرشًا، ولكن سأخسرها هذا المساء. لعنة الله على كل شيء!»

ولم تمضِ مدة قصيرة حتى قدم إليه صديقه فيريو؛ ذلك الصديق الذي بقي وفيًّا له حتى يومه الأخير.

أإلى هذا العهد ترجع هذه القصة التي خلَّدها لامرتين في روايته «غرازييللا»؟ إذا شئنا أن نصدِّقه، فنرى أنه صرف أيامًا عديدة في كوخ أحد الصيادين في جزيرة بروسيدا حيث

عَلِقتْ به فتاةٌ بريئة طاهرة تدعى غرازييللا، ورفضت من أجله أن تتزوج من الصياد بيبو، الذي كان قد خطبها من والديها، ونرى أيضًا أن رحيله من الجزيرة أوقع الفتاة في يأس عظيم، فماتت بعد أيام بداء التلاشي والانحلال.

ولكن يغلب على الظن أن غرازييللا هذه فتاة خيالية، تصوَّرتْها مخيلة الشاعر في السنة ١٨٣٠، وذكرها في«مطارحاته» في العام ١٨٤٩.

العودة إلى باريس وإلى عرائس الشعر

ولما عاد لامرتين إلى باريس — وكان صديقه فيريو قد عُيِّن قبله كاتم أسرار في السفارة الفرنسية في البرازيل — شعر بثقل الوحدة يضغط على نفسه، ويزداد ضغطًا من يوم إلى يوم، فترامى بين أذرع العرائس الشعرية، وراح ينظم القصائد الكئيبة، التي أكَّد الشاعر فيما بعد أنه أحرقها كلها.

على أن هناك بضعًا من القصائد يرجع عهدها إلى ما قبل العام ١٨١٦ تُرى مدرجة في ديوانَيْه «التأملات» و«االتأملات الجديدة»، وهي قصائد ملؤها العاطفة الكئيبة، التي لازمت الشاعر إلى آخر حياته، وقد يكون استوحاها من حبِّه لهنرييت بوميه، التي أيقظت في قلبه أولى جذوات الحب.

ولا بدَّ هنا من القول أن لامرتين لم يستوحِ جميع القصائد التي نظمها قبل العام ١٨١٦ من امرأة واحدة شاء أن يطلق عليها اسم «إلفير»، بل هو قد استوحى كثيرًا منها من تذكُّره جميع النساء اللواتي استطاع أن يحبهن في مراحل شبابه الأول، أو اللواتي حاول أن يحبَّهن ولم يستطع إلى ذلك سبيلًا.

وكان بودِّه أن ينشر هذه القصائد قبل العام ١٨١٦، قال: «سأطبع أربعة دواوين شعرية صغيرة، فإذا نجحتُ كنتُ رجلًا عظيمًا، وإلا فتكون فرنسا قد أضافت إلى دجَّاليها دجَّالًا آخر.»

لامرتين في طريق المجد

١٨١٦–١٨٢٠

بعد أن تأثَّر لامرتين بمطالعاته وأسفاره، ونضج فيه الميل إلى المطامح الأدبية الكبرى والمطامح السياسية الواسعة، أصبح وهو في السادسة والعشرين من عمره عاجزًا عن أن يهيئ له مستقبلًا؛ لأنه إنما كان يعفُّ عن أن يحذو حذو هؤلاء المتملقين، الذين استطاعوا بخنوعهم أن يبلغوا إلى المراكز التي طمحوا إليها وهم دونه معارف وذكاء.

إلا أن الأيام لم تلبث أن وفرت له نوبتين أنضجتاه: نوبةُ عاطفةٍ، ونوبةُ فكرٍ، فخرج منهما وهو شاعر العصر الكبير …

أمَّا أساس هاتين النوبتين فكان نفوذ امرأة، هي جوليا بوشو، زوجة العالم الطبيعي الشهير شارل، عضو مجمع العلوم والمعارف، التي ساعدت لامرتين، من حيث لم يقصد، على أن يفتح لنفسه طريق الخلود، والتي خلَّدتْهَا قصائده الأولى تحت اسم «إلفير».

جوليا بوشو

كانت جوليا بوشو في الثانية والثلاثين من العمر عندما أشار عليها الأطباء بأن تصرف أشهر الصيف في قرية إكس لوبان؛ إذ إن داء الصدر في تلك السنة ١٨١٢ كان قد بلغ منها أشده.

صادف لامرتين هذه المرأة في هذه القرية نفسها؛ إذ إن الأطباء كانوا قد أشاروا عليه هو أيضًا بأن يصرف أشهر الصيف فيها. ففي العاشر من شهر تشرين الأول، كان لامرتين يتنزَّه على بحيرة بورجه في إكس لوبان، فالتقى زورقه زورقًا صغيرًا كان يقلُّ جوليا بوشو، وإذا بزوبعة شديدة قلبت الزورق الصغير، وجعلت المرأة في خطر.

أتُراها سقطت في الماء فأنقذها لامرتين؟ أم أن لامرتين أدركها قبل أن تسقط وأعانها على ما بها؟ لا نعلم، ولكن الحقيقة هي أن لامرتين كتب إلى صديقه لويس ده فينييت في اليوم التالي يقول له إنه «أنقذ مدام شارل من الغرق.» وزاد على ذلك بقوله: «إن هذه المخلوقة العذبة أصبحت تملأ أيامه، وإنها توشك أن تُشفى من مرضها.» ودعا صديقه للحضور إلى القرية ليتحقق ذلك بنفسه.

في الخامس عشر من تشرين الأول، عندما وصل لويس ده فينييت إلى إكس لوبان، كان لامرتين وجوليا بوشو قد نظَّما حياتهما في القرية، وكانا قد صرفا مساء اليوم العاشر أو الحادي عشر من تشرين الأول في التنزه بعد العشاء على ضوء القمر، وتبادلا الحديث عن ماضيهما، وعن الملل الذي قاسياه والآمال التي ينتظران تحقيقها. وفي ذلك المساء نفسه صحَّت عزيمة الاثنين على أن يكون كلٌّ منهما للآخر، فتحافظ هي على حبِّه، ويحافظ هو على حبِّها.

وكانت جوليا بوشو تزيد لامرتين ست سنوات؛ إذ كانت هي في الثانية والثلاثين، وكان هو في السادسة والعشرين، فأكَّدت له أنها ستحرص عليه كما تحرص الأم على ولدها، وأنها ستساعده على إيجاد مركز له، لما كان لزوجها الشيخ البالغ الحادية والخمسين من النفوذ في فرنسا.

وفي السادس والعشرين من تشرين الأول طوت جوليا بوشو (إلفير) جناحَيْها الملائكيَّيْن لتعود إلى باريس، فشيَّعها لامرتين إلى ماكون، ورجع إلى ميللي ينتظر الرسالة الأولى التي وعدتْهُ بها. وما هي إلا أيام قلائل حتى قدم الشاعر إلى باريس، وظهر في منزل جوليا، حيث بقي أيامًا عديدة.

كان كلَّ مساءٍ يذهب بها إلى النزهة، فتتكئ على ذراعه نحيلةً صفراء، وتستسلم إلى أفكارها السوداء … أما العابرون فكانوا يخالونهما أخًا وأختًا، ويظنون أن لامرتين شقيقٌ محبٌّ ساهر على نقاهة أخته، إلا أن الفناء كان يقضم ذلك الهيكل الهزيل، فلا تطلع الشمس إلا على جسدٍ أخذتِ الليلة الفائتة حصَّتها منه. ولَّما اضطر لامرتين إلى أن يعود إلى أشغاله تواعدا بلقاء في إكس، وأعطته دفترًا صغيرًا من «الماروكان» الأحمر ليملأه بما يوحيه إليه فراق «إلفير».

كان لامرتين أمينًا على الوعد؛ ففي الحادي والعشرين من شهر آب صعد إلى إكس لينتظر جوليا، إلا أن آماله ذهبت أدراج الرياح؛ فقد تناهى إليه أن الحمى تفتك بها فتكًا ذريعًا، ولا سبيل إلى وصولها إليه، فهام على نفسه يفكر في «الغائبة»، وفي نفسه ما فيها من الشجون واليأس.

وكان في القرية، أو في المنزل الذي يقيم به، فتاة تدعى ألينور كانوننج، تعرَّف إليها صدفةً، فلم يكتم عنها عذابه ويأسه، ولم يرفض رغبتها إليه في التنزه ساعة على ضفاف البحيرة في إكس.

كان الصيف يُذيب عواطفه العذبة على بحيرة بورجه، فاستسلم لامرتين إلى الذكريات، وما هي هنيهة حتى شعر برعشة سرت في جميع مفاصله، فاستأذن الآنسة وانصرف عنها إلى خلوة على الضفة الشمالية من البحيرة، حيث كان يجلس في الصيف الماضي مع تلك التي ملكت عليه مشاعره وقلبه.

ولم تأذن الساعة السادسة من المساء حتى كان لامرتين قد أفرغ ما كان في قلبه من الدموع، وكأنه شعر بعاصفة من العواطف تنطلق في صدره، فاختلج فترة، وغارت عيناه في محجريهما، فأخذ من جيبه الدفتر الصغير الذي أعطته إياه جوليا، وكتب على الصفحة التي عرضت له هذه الكلمات: «أنا جالس على صخرة الضفة الشمالية أفكر فيك يا جوليا.» إلا أنه تذكَّر أن جوليا تُحتضَر، وأن الكلمات الموجعة لم يتلفَّظ بها بعد، فكتب: «تذكار الأيام الجميلة التي صرفناها معًا على شاطئ البحيرة.» ثم أطبق الدفتر وراح يحلم بعض دقائق، وإذا بأغنية تستفيق في قلبه، ففتح الدفتر وفكَّر فترة من الوقت ثم كتب:

ذات مساء، أتذكرين؟ كنا نعوم بسكون
على أحشاء أمواجك المفضضة بضوء القمر
وعلى دويِّ الجذافين الضاربين بإيقاع ...

ثم توقَّف فضرب على البيت الثاني، واستبدل به هذه الكلمات:

ولم يكن يُسمَع في الأبعاد، على الماء وتحت السماء
إلا دوي الجذافين الضاربين بإيقاع
أمواجك الموسيقية.

ثم بدأ بمقطع آخر:

إنَّ مركبة الليالي الموسيقية
كانت تنير ضآلة شواطئك القفراء ...

وهنا توقَّف فترة، وكأنه أمسك بأهداب فكرة أخرى، هي أن يُدرج في القصيدة «أغنية جوليا»، فكتب: «تابِع، تابِع مجراكَ أيها الزورق الشارد.»

ويظهر أن رفاقه في تلك القرية «الصيفية» فاجَئُوه في تلك الآونة، فأخفى الدفتر في جيبه وعاد معهم إلى المنزل.

وفي اليوم التالي عاد إلى البحيرة من غير أن يشعر به أحد، وأكمل تلك القصيدة الساحرة «البحيرة»، إلا أن لامرتين كان تشبَّع من روسو وشاتوبريان، فاستعرض في مخيلته «هلويز الجديدة» و«أتالا»، ولكن هذا الاستعراض لم يَحُل بينه وبين صدقه في عاطفته، وهو ينظم قصيدته على شاطئ البحيرة.

قال لامرتين في قصيدته «البحيرة»: «ذات مساء، أتذكرين؟» وقال روسو قبل سنوات عديدة: «كنا صامتَيْن صمتًا عميقًا، وكان دوي المجاذيف ذات الإيقاع المتوازن يهيج في قلبي الرغبة في الأحلام!» وقال شاتوبريان في «أتالا»: «كانت أتالا تنشد فلا يقاطع شكاياتها إلا دوي زورقنا فوق المياه ...»

وبعد يومين ترك لامرتين إكس؛ ليلحق بصديقه فيريو فيذرف بين ذراعيه بقايا دموع غادرتها الأيام في قلبه، أما الداء فكان يسير مسيرته في جسد جوليا التي انقطعت إلا عن الماء، عملًا بإشارة الطبيب، وكان لامرتين يعرف حق المعرفة أن الموت يتأهَّب لاختطاف تلك التي أوحت إليه قصائده الخالدة، فكتب إلى الآنسة كانوننج في الرابع والعشرين من تشرين الأول يقول: «إن التي أحبُّها فوق كل إنسان في هذا العالم تتلوَّى منذ أسابيع في نزع أليم، وأراني غير قادر أن أكون بالقرب منها.»

وفي الثامن من شهر كانون الأول فاضت روح جوليا بمهلٍ وسكون، وشفتاها لاصقتان بخشب صليب صغير، وكان طيف لامرتين لا يزايل عينيها في تلك الليالي الأخيرة التي صرفتها، على ما بها من الضعف، في قراءة رسائله وترتيبها بحسب تواريخها، ووضعها في غلافين كبيرين كتب عليهما هذه الكلمات: «أوراق تخص السيد فيريو.» وفيريو هذا صديق لامرتين الأكبر — كما عَلِمنا — ومواسيه في ليالي الدموع واليأس.

لامرتين في ذروة المجد

١٨٢٠–١٨٣٠

كان على لامرتين أن يخطو بضع خطوات إلى الأمام؛ لينسى آلامه وبؤسه، فالمجد الذي كثيرًا ما طمح إليه في حياته المضطربة وعزلته الموحشة كان على وشك أن يخيِّم عليه بجناحَيْه الكبيرين؛ ففي الحادي عشر من شهر آذار من العام ١٨٢٠، نشر لامرتين ديوانه الأول «التأملات» محتويًا أربعًا وعشرين قصيدة، ذاعت ذيوعًا عظيمًا، حتى بين الذين لا يأبهون للشعر، فالملك نفسه أثنى عليها ثناءً طيبًا، وراح أقطاب السياسة يقرءونها ويحفظونها عن ظهر قلب.

وكانت الأميرة ده تالمون قد بعثت بنسخة من «التأملات» إلى الأسقف ده تاليران، أعظم رجال السياسة في ذلك العهد، فقرأها في ليلة واحدة وكتب إليها يقول: «أُعيد إليكِ أيتها الأميرة، قبل أن أرقد، الكتابَ الصغير الذي أعرتِنِي إياه أمس، ويكفيكِ أن تعلمي أني لم أَنَم، وأني سهرت إلى الساعة الرابعة من الصباح أقرأ هذا الكتاب وأُعيد قراءته. لستُ نبيًّا أيتها الأميرة، على أني أؤكد لك أن وراء ذلك الشعور المتدفق من هذه القصائد رجلًا رجلًا، وسنتحدث عنه بعد.»

وقال تيوفيل غوتيه: «إن التأملات الشعرية هي أعظم أثر شعريٍّ ظهر في هذا العصر. إنها لنفس عذب ومحيٍ معًا، لا، بل هي خفقان أجنحة تلامس الأرواح! فالشبان والفتيات والنساء هاموا بلامرتين حتى أوشكوا أن يعبدوه! وحتى أصبح اسم الشاعر منطبعًا على جميع الشفاه. والباريسيون الذين يميلون إلى الشعر أصبحوا منقادين بفطرة الجمال والإحساس إلى ترديد مقاطع من «البحيرة» في مجالسهم وسهراتهم.»

كان الشعب يجهل لامرتين قبل أن أصدر «التأملات»، غير أن المجتمع الباريسي وأشراف البلاط كانوا يمهِّدون له الشهرة بكل ما أوتوه من النفوذ العظيم؛ لأن الشاعر كان قد انضم إلى الملكية منذ العام ١٨١٦، وتقرَّب إلى السيدة النبيلة مدام ده ريجكور، الصديقة القديمة للأميرة أليصابات، ومن السيدة مدام ده مونكالم، ومدام ده بروغلي، وتعرَّف إلى الدوق دورليان والدوق ده مونمورانسي، أعظم رجال فرنسا في ذلك العهد، والدوق ده روهان الذي بقي محافظًا على صداقته إلى آخر حياته.

لقد عرفنا أن حبَّ لامرتين لجوليا بوشو أجرى في روحه ينابيع الإحساس، فتدفَّق الشعر من قلبه كما تدفَّق من قلب بيترارك يوم أحبَّ لور، ومن قلب دنتي يوم أحبَّ بياتريس؛ فقصائده «البحيرة»، و«الخلود»، و«الهيكل»، و«المصلوب»، و«الرؤيا»، و«الوحدة»، و«اليأس»، و«الإيمان»، هذه القصائد كلها استوحاها الشاعر من حبِّه لجوليا؛ لإلفير التي كان لها اليد البيضاء في تكوين الشاعر العظيم.

زواج الشاعر

في ربيع العام ١٨١٩ تعرَّف لامرتين إلى الآنسة ماريان إليزا بيرك، وهي فتاة إنكليزية ميالة ميلًا شديدًا إلى الفنون الجميلة والشعر، فضلًا عن أنها موسيقية ورسامة من الطراز الأول، وكانت قد سمعت لويس فينييت، صديق لامرتين، ينشد بعض قصائد للشاعر فأُعجبت بها، وأظهرت رغبتها في التعرف إلى ناظمها. وما إن قُدِّر لها ذلك حتى شعرت بميل إليه، ما لبث أن استحال إلى حب، وهكذا مهَّد الشعر طريق الزواج للشاعر.

على أن لامرتين لم يشعر في الأول بسوى ميل طفيف نحو الآنسة ماريان بيرك، التي لم تكن على قسط من الجمال، بل كانت على كثير من اللطف والثقافة، وهذه الثقافة لم يكتشفها الشاعر في زوجته العتيدة إلا في صيف العام التالي ١٨٢٠، فكتب إليها يطارحها حبَّه ويعرض عليها الزواج، فلم ترفض …

وكان أنَّ علاقتها بالشاعر أثارت غَيرة صديقه لويس فينييت، الذي كان مأخوذًا بالآنسة بيرك، فراح يدسُّ بين الخطيب وخطيبته رجاءَ أن يعكر الماء بينهما فلم يفلح؛ لأن خطيبة الشاعر كانت واثقة من جدارة خطيبها، فلم تزعزعها النميمة.

وفي السادس من شهر حزيران ١٨٢٠ عُقد لهما في كنيسة قصر شامبيري، مأوى آل بيرك. وفي الخامس عشر منه، سافر الشاعر وزوجته إلى إيطاليا ليتسلَّم وظيفته الجديدة في سفارة نابولي.

كانت زوجته غنيَّة؛ فقد أعطتها أمها مهرًا قدره عشرة آلاف ليرة إنكليزية، وكان هو غنيًّا أيضًا؛ فقد وهبه والده قصر سان بوان وثمنه مائة ألف فرنك، على أن يعطي كلًّا من أختيه أربعة وعشرين ألف فرنك، ووهبه عمَّاه وعمَّتاه قصرًا كبيرًا في ماكون، ومبلغًا قدره مائة وخمسة وعشرون ألف فرنك.

المشاريع الأدبية الكبرى

على أن لامرتين لم يرتَحْ إلى الإقامة بنابولي؛ وما هي بضعة أشهر حتى مرض بداء الأعصاب، فطلب مأذونيَّة لم يعيِّن مدتها، وغادر نابولي في العشرين من شهر كانون الثاني ١٨٢١، على أن يمكث في روما بضعة أسابيع ثم يوالي سيره إلى فرنسا بعد أن يصرف بضعة أيام في البندقية.

وإذ هو في الطرق، تفتَّحت روحه لشعاع داخلي، وراح يحلم بقصيدة رحبة واسعة النطاق يضمِّنها الرقي البشري منذ فجر التاريخ.

قال: «أشعر بأني صرتُ شاعرًا كبيرًا، فلقد بدأتُ أحلم بقصيدة رحبة كالطبيعة، مفيدة كالقلب البشري، رفيعة كالسماء، ولم يبقَ عليَّ إلا أن أنتظر ريثما تُفسح لي السماء في نظمها.»

بقي لامرتين في روما من أواخر كانون الثاني إلى منتصف نيسان، ولقد صرف وقته هذا، تارة في كنيسة القديس بطرس، وطورًا في قصر الدوقة ده ديفونشير، وفي منتصف شهر شباط رُزِق غلامًا سمَّاه ألفونس وعمَّده في كنيسة القديس بطرس بروما ... إلا أن الغلام لم يَعِش طويلًا.

وما إن قَدِم الصيف حتى كان لامرتين وزوجته في إكس لوبان، في ذلك الوادي الحبيب الطافح بتذكارات الشاعر.

وكانت زوجة لامرتين قد عرفت بذلك الحب العظيم الذي أيقظ جذوة الشاعرية في روح زوجها، فشاطرتْهُ حسرتَهُ على تلك المرأة التي أوحت إليه قصيدة «البحيرة».

وبعد مرور بضعة أشهر على إقامة الشاعر بقصره في ماكون، رُزِق ابنةً جميلة سُمِّيت جوليا؛ تذكارًا لمدام جوليا شارل أو «إلفير».

وفي تلك السنة ١٨٢٢، أصدر لامرتين الطبعة التاسعة من «التأملات» مضافًا إليها أربع قصائد جديدة، وباشر إعداد الجزء الثاني من هذا الديوان الشعري. أما الطبعات الثماني من «التأملات» فقد بيع منها عشرون ألف نسخة.

التأملات الجديدة

في ١٥ شباط ١٨٢٣ كتب لامرتين إلى صديقه فيريو يقول: «لقد بعتُ ديواني الجديد بمبلغ أربعة عشر ألف فرنك يُدفع نقدًا في هذا الصيف.» ولما صدر هذا الديوان كتب ألفرد ده فينيي إلى فيكتور هيغو يقول: «إن مجموع قصائد هذا الديوان الجديد لا يوازي مجموع قصائد الديوان الأول، على أن هناك قصيدة «البريلود» وبعض فقرات من قصيدة «بونابرت» لا أظن أن لامرتين سبق له أن نظم مثلها. وعلى كلٍّ أرى في شعره قلبًا وشعورًا يُعبد من أجلهما، فهو قد عرف أن يمتزج بجميع القلوب.»

موت سقراط

في السنة ١٨١٧ كان الكاتب الفرنسي فيكتور كوزان، الذي عُزل من مركزه في جامعة السوربون، قد نَقل إلى اللغة الفرنسية جميع مؤلفات أفلاطون مشروحة شرحًا وافيًا، وكأنَّ تعشُّق لامرتين للفيلسوف اليوناني أيقظ في مخيلته طيف أستاذه العظيم سقراط؛ ففي ١٥ شباط ١٨٢٣ كتب إلى صديقه فيريو يقول: «أشرُعُ اليوم بعملٍ فكَّرت فيه منذ ست سنوات، وهو نشيد في موت صديقنا سقراط.» وبعد مرور شهر كتب إلى فيريو يبشِّره بإنجازه النشيد. أما النشيد هذا فكان يحتوي تسعماية بيت لم يسبق للامرتين أن نظم أروع منها؛ ولقد باع الشاعر قصيدته هذه بستة آلاف فرنك، على أن يعود إليه حق نشرها بعد مرور تسع سنوات.

قال لامرتين في المقدمة التي وضعها لهذا النشيد ما يلي: «لقد حارب سقراط طوال حياته سلطان الحس الذي هدمه المسيح؛ ففلسفته كانت فلسفة دينية وديعة، عذبة، خاضعة، لقد حزرت وحدة الله وخلود النفس.»

آخر أناشيد شيلد هارولد

بعد أن صدر ديوان «التأملات الجديدة» وقصيدة «موت سقراط» اللذان استقبلهما النقاد بفصول قاسية فيها كثير من التحامل، صحَّت عزيمة لامرتين على أن ينزوي في قصره ويعتزل العالم الأدبي، وأقسمَ على أن الأوساط الأدبية لن تسمع صوته قبل عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة. وفي شتاء ١٨٢٣–١٨٢٤ وجَّه فكره نحو الملحمة الكبرى التي حلم بها في العام ١٨٢١، وانصرف إلى نظم النشيدين اللذين استعرض فيهما أنبياء التوراة وفرسان

القرون الوسطى. ولم يخرج من قصره إلا في مطلع الخريف؛ ليرشِّح نفسه لكرسي المجمع العلمي الذي فرغ بموت بيير لاكروتيل. على أن الشاعر لم ينجح هذه المرة، وإن يكن أتباع المذهب الرومانطيقي قد ناصروه، وناصره شاتوبريان، وفيللمان، وفيكتور هيغو — كان فيكتورهيغو وقتئذ في الثانية والعشرين من العمر — فقنط لامرتين وعاد إلى عزلته وانزوى في قصر سان بوان.

وكان أنَّ الشاعر الإنكليزي بيرون توفي في ميسولونغي (اليونان) حيث كان قد تطوَّع للدفاع عن اليونان في وجه الترك، فتأثَّر لامرتين تأثرًا شديدًا لموت شقيقه في الروح، وصحَّت عزيمته على أن يحيي شعرًا ذلك الشاعر البطل الذي أحبَّه وأُعجب به في حياته وموته. وكانت العاطفة المسيحية قد خمدت في روح الشاعر وبدأت جذوة الشكوك تضطرم فيه، فكتب نشيده «شيلد هارولد» تحت هذا التأثير الفجائي، فكان نشيدًا فلسفيًّا أكثر منه مسيحيًّا.

جاء في مذكرات والدته ما يلي: «يكتب ألفونس قصيدة عنوانها «شيلد هارولد» يحيي فيها موت اللورد بيرون في سبيل الاستقلال اليوناني. على أن القصيدة هذه تحتوي فقرات لا تروقني، وأخشى أن يكون قد تأثَّر بالأفكار الفلسفية الحديثة التي ترمي إلى هدم الدين والنظام الملكي.»

وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر شباط ١٨٢٥ أنجز لامرتين نشيده الكبير، وقد حيَّا فيه بطولة بيرون وعظمة اليونان الثائرين لأجل الحرية، وحاول أن يثبت أن الشعب اليوناني الحالي إنما هو وارث الشعب الإغريقي القديم، وختم نشيده بتحية هوميروس وأفلاطون والأرض اليونانية، أُمِّ جميع الحضارات.

ولم يكد الناشرون يعلمون بأن الشاعر أنجز قصيدته هذه حتى تهافتوا عليه يتبارون في التزامهم إياها، وما هي أن رست على الناشر دونداي دوبري بتسعة آلاف فرنك، وفي الرابع عشر من شهر ١٨٢٥ صدرت القصيدة في أربع وعشرين صفحة، وبيع منها ستة آلاف نسخة بيومين.

لامرتين في فلورانسا

في العام ١٨٢٥ عُيِّن لامرتين كاتمَ أسرار السفارة الفرنسية في فلورانسا. على أن الطليان لم يكونوا راضين عن الشاعر؛ لأنه كان قد قارن في قصيدته «شيلد هارولد» بين إيطاليا الحاضرة وبين إيطاليا الماضية، ورأى الإيطاليون في هذه المقارنة إهانة لإيطاليا الحالية، فسخطوا عليه وأضمروا له كرهًا شديدًا، وصُوِّر لهم أن توظيف لامرتين في بلادهم إنما هو

إهانة لهم وللقضية الوطنية معًا، فراحوا يشيحون عنه بوجوههم وينبذونه في المجتمعات والنوادي، ويسخرون منه في الصحف والمجلات.

ومما جاء في إحدى المقالات التي وجِّهت إليه في الصحف: «إن ناظم «شيلد هارولد»، النشيد السخيف، رجلٌ فارغ صوَّرت له مخيلته العقيمة أن ينال الشهرة الكاذبة عن طريق الطعن والقدح.»

ولكن هذه الحملات ما لبثت أن هدأت عُقيب مبارزة جرت بين الشاعر وأحد الضباط الإيطاليين، أُصيب فيها الأول بجرح في ذراعه، وبقي لامرتين ثلاث سنوات في إيطاليا، كان في نهايتها قد بدأ يحلم بجولة في الشرق وبوضعه يده على زمام السياسة.

على أن إقامته بإيطاليا وأشغاله السياسية لم تُنسِهِ الإصغاء إلى البلبل المنشد في صدره؛ فقد نظم في تلك السنوات الثلاث جملةَ قصائد حملها معه إلى فرنسا لينشرها فيما بعد في ديوان يسميه: «الإيقاعات الشعرية». ولم يكد يرجع إلى فرنسا حتى شعر بميله إلى الأدب يملكه من جميع أقطاره. قال: «إن قلبي طافح شعرًا، وبودِّي أن أترك كلَّ شيء وأتبع روحي، ولكن لا أعلم أي سبيل أسلك لأصل إلى هذه الغاية التي أنشدها؛ على أن خيال دنتي يتراءى لي ويؤنبني، ففي نفسي سفَّاح شعرٍ يمتص دمي.»[1]

لامرتين يُنتخَب عضوًا في المجمع العلمي

في أواخر شهر حزيران من العام ١٨٢٩ حضر لامرتين، في منتدى مدام ريكاميه، قراءةَ «موسى»، وهي الرواية التمثيلية الشعرية التي وضعها الكاتب الكبير شاتوبريان. وكان شاتوبريان في ذلك الحين في أوج مجده الأدبي، وأعظم كاتب في أوروبا؛ فراح الشاعر يعمل لتمكين الصداقة بينه وبين شاتوبريان توصُّلًا إلى كرسي في المجمع العلمي.

وما هي أن تم له ما أراد؛ ففي الخامس من شهر تشرين الثاني انتُخب لامرتين خلفًا للكونت دارو بتسعة عشر صوتًا، مقابل أربعة عشر صوتًا نالها الكونت فيليب ده سيغور، مؤلف تاريخ حملة روسيا ومرافق نابوليون في موقعة ١٨١٢.

على أن وفاة والدته أوقعته في قنوط شديد، وأفقدته يومًا بعد يوم معتقداته السياسية والدينية معًا؛ إذ إنها كانت الصلة الوحيدة بينه وبين النظام الملكي.

[1] من رسالة بعث بها لامرتين إلى فيريو في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر ١٨٢٨).

لامرتين ينشر ديوانه الثالث

قلنا سابقًا إن الشاعر كان قد نظم في إيطاليا قصائد بينها «يهوه» أو فكرة الله، و«الدوحة» وهي تابعة لقصيدة «يهوه»، و«الإنسانية» وهي تابعة لقصيدة «يهوه» أيضًا، و«ميللي» أو مسقط الرأس، و«أنشودة المسيح»، و«الحسرة الأولى»، وهي مناجاة تذكَّر فيها الشاعر طيف غرازييلا، و«أنشودة الصباح» وغيرها. ولقد شاء لامرتين أن يبيع حق نشر هذا الديوان بأربعين ألف فرنك، ولا ننسى أنه كان شديد الرغبة في أن يستثمر مؤلفاته ويَهَبَ عروس الشعر الفرنسية ذهبًا وفضة. على أنه لم ينجح هذه المرة، فتريَّث إلى أن نجحت المساومة.

وفي ١٥ يونيو ١٨٣٠ ظهر الديوان في جزأين يحتوي كلٌّ منهما ٣٥٠ صفحة. أمَّا ملتزِمُهُ، فكان الكتبي الشهير شارل غوسلين المشمول برعاية الدوق ده بوردو، وأما الديوان فقد استقبله الأدباء بكثير من الثناء إلا بعضًا منهم حمل عليه حملةً شديدة لم يعبأ بها الشاعر.

المقاصد الكبرى

١٨٣٠–١٨٤٩

عندما انطلقت ثورة ١٨٣٠ حوَّلت لامرتين عن طريق الأحلام، وطرحتْهُ في طريق العمل حيث كان ينتظره شكل جديد من أشكال المجد. وكان منذ العام ١٨١٧ قد بدأ يهتم اهتمامًا كبيرًا بالقضايا السياسية، ولقد كتب إلى صديقه فيريو يقول: «إني لأتوقع في البلاد ثورة تجترف الملك ما كنت لأتوقعها من قبل.»

وفي ٢٧ حزيران ١٨٣٠ كتب إلى فيريو يقول: «أمريضة فرنسا أم لا؟ أمَّا أنا فأظنها تُحتضَر؛ وعلى كلٍّ، أراني مستعدًّا للمناضلة ومقاومة الأغبياء والمنافقين.» وكتب إليه أيضًا: «إن الجهاد في سبيل الحرية لمن المقدسات عندي؛ على أني أخشى الانتقال من النظام الملكي إلى الفوضى ...»

وبعد مرور ثلاثة أشهر رشَّح لامرتين نفسه لكرسي في مجلس النواب؛ على أنه لم ينجح؛ لأن الشعب كان ينظر إليه كأحد مناصري الملك كارلوس العاشر وسلالة البوربون. سوى أن الشاعر لم يكن في حاجة ملحة إلى الجلوس على الكرسي النيابي؛ لأن رغبته في زيارة الشرق كانت تملأ روحه، قال: «أودُّ أن أذهب إلى الشرق لأبحث عن تأثيرات شخصية في ذلك الملعب الرحب، حيث وقعت حوادث العالم القديم ومثَّلت السياسات والأديان. أودُّ أن أقرأ قبل الموت أجمل صفحة من سِفْر الخليقة، فإذا اهتدى الشعر في ذلك الملعب إلى صور جديدة فلا أتردَّد عن حملها في زوايا مخيلتي؛ رجاءَ أن أتوصل بذلك إلى إعارة الآداب ألوانًا جديدة.»

ولقد كانت رغبة لامرتين في زيارة الشرق قد بدأت تحرِّك نفسه منذ العام ١٨١٨ أو قبله، فشاتوبريان كان قد شوَّق الفرنسيين في أحد كتبه إلى زيارة مهبط الأنبياء، وكانت

ثورة اليونان على الترك قد نبَّهت الشباب الرومانطيقي إلى جمال الشرق. ولقد اتصل بالمسيو دوميك رسالة كتبها لامرتين في العام ١٨١٨ نأخذ منها ما يلي: «لو استطعتُ أن أجمع مائة ليرة لذهبت إلى اليونان، فإلى أورشليم، لا أحمل إلا كيسًا، ولا آكل إلا خبزًا.» وقبل أن يهمَّ بالسفر كتب إلى صديق له يقول: «أود أن أزور في الأول مدينة القسطنطينية فأتفرَّج على شواطئ البوسفور، ثم أنتقل إلى سوريا فأزور فلسطين ولبنان وتدمر وبعلبك، إذا سمح العرب، فإلى مصر حيث أتفرج على النيل والأهرام.»

ولما حان موعد الرحيل استقلَّ الشاعر مركبًا شراعيًّا محمولُهُ مائتان وخمسون طنًّا، وهو مِلْك البحريِّ برينو روستان، جدِّ الشاعر إدمون روستان. وعندما وصل لامرتين إلى مرسيليا استقبله رهط من المعجبين به، واحتفى به احتفاءً لم يكن الشاعر قد عرف مثله بعد. ولقد شاء المجمع الأدبي في هذه المدينة أن يكرِّمه فانتخبه عضو شرف، ولَّما حان موعد السفر ودَّع الشاعر إخوانه بقصيدة رائعة، نقتطف منها ما يلي: «لم أسافر بعدُ في أوقيانوس الرمال على مطية مركب الصحراء،[١] ولم أبلَّ غليلي في المساء من آبار العبرانيين المظللة بالنخيل، ولم أبسط وشاحي تحت الخيام وأرقد على التراب الذي رقد عليه أيوب، ولم أحلم بعدُ أحلام يعقوب على حفيف الأردية الخفاقة.

لم يبقَ عليَّ أن أقرأ من صفحات العالم السبع إلا صفحة واحدة: فأنا لا أعرف كيف تضطرب النجمة في السماء، ولا كيف يخفق القلب في دنوِّه من الآلهة! ولم أسمع صراخ الأمم صاعدًا من الأرز القديم، ولم أبصر من مرتفعات لبنان أسراب النسور النبوية تتلاطم على أبراج صور، ولم أُلقِ رأسي على الأرض التي لم تبقَ من تدمر إلا صدى اسمها.

لم أسمع بعدُ أمواج الأردن ترفع صراخها الأليم ناحبةً نحيبًا أسمى من نحيب إرميا، ولم أمشِ على آثار إلهية في ذلك الحقل الذي بكى فيه المسيح تحت أشجار الزيتون، ولم أضع جبيني في التراب الذي انطبعت عليه قدم المخلِّص، ولم ألطم صدري العميق في المكان الذي فتح فيه المسيح ذراعيه ليعانق العالم ثم انحنى ليباركه!»

وفي العاشر من شهر [...] ١٨٣٢ وصل إلى أثينا، وبعد أن جال جولة بطيئة في جزر الأرخبيل دخل إلى سوريا عن طريق قبرص، ووصل إلى بيروت في اليوم السادس من شهر أيلول.

[١] يقصد بمركب الصحراء: الجمل.

أمَّا بلاد اليونان فلم تَرُق لامرتين في شيء. قال في إحدى رسائله: «باطل! لم أقع في بلاد اليونان على جمال إلا في بعض أكمات من جبَلَي تيجيت ولاكونيا، حتى إن السماء نفسها لا توازي سماء إيطاليا، فهي محجوبة بالضباب وضئيلة العمق.»

وقال في رسالة أخرى: «لقد زرنا أشهر جهات اليونان: أجينا وسلامين وأثينا وغيرها، أما أثينا التي يُفرِط السُّواح في مدحها فهي فظيعة، ولا تشوق الزائر إلى العودة إليها، ولولا ماضيها وأسماء رجالها الغابرين لما وجدنا فيها ذرَّة من الجمال، وهكذا قُلْ عن جميع جزر الأرخبيل التي زرناها، فليست سوى صخور سوداء عارية.»

لامرتين في بيروت

استأجر لامرتين على أبواب المدينة دارًا محاطة بالبساتين، وبعد أن استراح من عناء السفر خمسة عشر يومًا، غادر زوجته وابنته جوليا في بيروت، ومضى في قافلة من الجياد تحمل حاشية من اللبنانيين والمصريين يزور بلاد الجليل واليهودية وصور وصيدا. ولدى عودته إلى داره في بيروت كتب إلى صديقه فيريو يقول: «لقد طفتُ مدة خمسة وأربعين يومًا فزرت الجليل وفلسطين ولبنان والأردن وبحيرة طبريا والبحر الميت وصور وصيدا، ولدى وصولي إلى أورشليم رأيت الطاعون ضاربًا أطنابه فيها؛ على أني لم أتقهقر بل دخلت، وعدت منها سليمًا معافى، وهكذا عادت معي حاشيتي الكبيرة بفضل الاحتياطات التي اتخذتُها على يد إبراهيم باشا.»[٢]

ولنسمعه الآن يصف مأواه في بيروت، قال: «ما من لذَّة تعدل اللذة التي تذوَّقناها ساعة استفقنا من الرقاد عقيب الليلة الأولى التي صرفناها في دارنا. لقد تناولنا طعام الصباح على سطح فسيح يشرف على جهات جميلة تفقَّدناها جميعًا بأبصارنا.

تقوم الدار على مسافة عشر دقائق من المدينة، ويُنفَذ إليها من طرق مظلَّلة بأشجار أمن الصبير تدلي ثمارها الشائكة على رءوس العابرين. يجتاز المارُّ بعضَ جسور قديمة وبرجًا كبيرًا مربع البناء شيَّده أمير الدروز فخر الدين، وهذا البرج يحلُّ اليوم محلَّ مستشرف لبعض الخفراء من جيش إبراهيم باشا، ثم ينسلُّ بين جذوع التوت إلى أن يبلغ جمهرة من بيوت منخفضة، تختبئ بين الأشجار ويحيط بها مرج من الليمون، وهذه

[٢] كانت جيوش إبراهيم باشا تحتل يومئذ الأراضي السورية واللبنانية.

البيوت يختلف بعضها في بنائه عن البعض الآخر، أما البيت المنتصب في الوسط فيظهر بشكل برج مربع، ويرتفع شامخًا على سائر ما يقوم حوله، وأمَّا سطوح هذه البيوت فيتصل أحدها بالآخر ببعض أدراج من الخشب.

نرى البحر على مائة خطوة منَّا يتقدم في الأرض فيتراءى لنا، من خلال رءوس الليمون والصبير الخضراء، كبحيرة جميلة أو كنهر عريض لا يظهر منه إلا جزء صغير، ونرى بعض زوارق عربية ملقية المراسي تهدهد على تموجاته المرسلة برخاوة وكسل. وإذا صعدنا إلى السطح الأعلى، تستحيل هذه البحيرة الجميلة إلى خليج رحب، يسدُّه قصر بيروت المغربي من ناحيةٍ وأسوار شاهقة كالحة لسلسلة الجبال المنحدرة بسرعة نحو مدينة طرابلس من الناحية الأخرى. إلا أن الشفق يمتد أمامنا امتدادًا بعيدًا، فهو يبدأ بالركض على سهول خصبة غُرست فيها شجرات تحجب الأرض عن النظر، وانتشرت فوقها بيوت تشبه بيتنا، ترفع سطوحها في الجو كشرع بيضاء على خضمٍّ من الخضرة، ثم ينحصر بين أكمة ملساء مستطيلة يقوم على قمتها دير للروم الأرثوذكس بجدرانه البيضاء وقبابه الزرقاء. ويخيِّم على قباب هذا الدير بعض رءوس من الصنوبر المستوي على مرتفع هناك.

وتنحدر الأكمة على درجات تدعمها أسوار حجرية، وتحمل أحراجًا من الزيتون والتوت، ويجيء البحر فيغسل آخر هذه الدرجات ثم يحيد عنها.

وعلى مقربة منها سهلٌ آخر يستدير وينحفر ليفسح مجالًا لنهر ينساب طويلًا بين غابات الدوح الأخضر، ويرتمي في الخليج المصفرَّة مياهُهُ على الشواطئ، ولا ينتهي السهل هذا إلا عند أكتاف الجبال الذهبية.

أما الجبال هذه فلا ترتفع دفعة واحدة، بل تبدأ صعودها بأكمات ضخمة بعضها مستدير، والبعض شبه مربع تغطي قممها المزروعات، وتُقلُّ كل واحدة منها إما ديرًا وإما قرية ينجلي عليها شعاع الشمس، فيجذب الأنظار. وتعرض درجات لبنان فوق أولى هذه الأكمات، فثمة سهول تراوح مسافتها بين فرسخ أو فرسخين، سهول متباينة بعضها محفور، وبعضها متلَّم، وبعضها حرثته الأودية والسهول والينابيع العميقة والخلجان المبهمة التي يضيع بها النظر.

وإذ تنتهي الجبال من هذه السهول ترجع فترتفع ارتفاعًا شبه مستقيم، وقد تراءت عليها أخيلة الأرز السوداء وبعض أديرة صعبة المسالك، وبعض قرى مجهولة يخالها الناظر منحنية فوق لججها وأودائها.

وهناك على قمة السلسلة الثانية، وهي أكثر تلك القمم نتوءًا، تقوم أشجار جبارة كأنما هي شعور نادرة على جبين أصلع، ونستطيع من هنا أن نتبين رءوسها المفرَّضة التي تشبه النوافذ المرتفعة على أحد الأبراج.

أما لبنان الحقيقي فيقوم وراء هذه السلسلة الثانية، إلا أننا لا نستطيع أن نرى أكنافه بوضوح، فنعلم أعاريةٌ هي أم مغطاةٌ بالنبات، لبُعد ما بيننا وبينها، ثم إنَّ هذه الأكناف تختلط في شفَّافة الجو بالجو نفسه، فلا يقع نظرنا إلا على شبهة من أشعة الشمس التي تغلِّفها، وعلى رءوسها النارية التي تمتزج بغيوم الصباح الأرجوانية، وتحلِّق في أمواج الجو كجُزرٍ لا سبيل إلى بلوغها.

أمَّا إذا انحدرت أبصارنا عن شفق هذه الجبال الجميل، فلا تستطيع أن تنحطَّ إلا على رزم من النخيل غُرست هنا وهناك على مقربة من بيوت العرب، وإلا على تموُّجات رءوس الصنوبر الخضراء المنتشرة في السهل ضُمات صغيرة، أو على أديم الأكمات، أو على غراس غير هذه تترامى أوراقها الثقيلة كأوسمة حجرية على الجدران الصغيرة التي تدعم السطوح، وهذه الجدران نفسها ترتدي ثيابًا من الزهر واللبلاب الأرضي والكرمة البرية، والأغراس ذات الأزهار المتباينة والعناقيد المختلفة الأشكال، فلا يتاح لك أن تتبيَّن معها الحجارة التي بُنيت بها هذه الجدران، فما هي إلا أسوار من الخضرة والأزهار. ويقوم أخيرًا على مقربة منا وبمرأى من أبصارنا، بيتان أو ثلاثة تشبه بيوتنا في فرنسا، عليها إزار من قباب البرتقال المزهر والمثمر … هناك عرب جالسون على البُسُط في سطوح بيوتهم يدخنون، وبعض نساء يطلُّ من النوافذ ليبصرنا، وإذ ينتبه إلى أننا نمعن النظر فيه يحتجب.

وهناك عيلتان عربيتان تتناولان الغذاء في ظلال شجرة تخيِّم على عتبة دارهما، وعلى مقربة منهما — تحت شجرة أخرى — فتاتان سوريتان لا يقع النظر على أجمل منهما، ترتديان ثيابهما في الهواء الطلق، وتملآن شعورهما أزهارًا بيضاء وحمراء؛ إحداهما ذات شعر مستطيل كثيف يوشك أن يغطي جملة جسدها، كأنما هو أغصان صفصافة باكية تتدلى على جذعها فتحجبه من جميع أطرافه، إلا أنها عندما تحرِّك تلك الشعور الخصبة يبين من تحتها جبينها الجميل، ومقلتاها المتألقتان بغبطة ساذجة، وكأني بها مرتاحة إلى إعجابنا بها.

لقد ألقيتُ إليها قبضة من الغازي، وهي قطع صغيرة من الذهب تعلِّقها السوريات بخيط من الحرير فتصنع منها عقودًا وسوارات، فجمعتْ كلتا يديها ورفعتهما إلى رأسها لتشكرني، ثم دخلت إلى الغرفة السفلى لتراها أمها وأختها.»

وقال يصف جبال لبنان: «لم يسبق لي أن تأثرت بروعة جبال في العالم كما تأثرت بروعة جبال لبنان؛ فللبنان طابعٌ لم أقع على مثله، لا في جبال الألب ولا في جبل طوروس، فهو مزيج من روعة الخطوط والقمم، وجمال التقاطيع وتنوع الألوان.

ولبنان جبل عظيم كاسمه، فهو جبال الألب تحت سماء آسيا التي تغمس قممها الهوائية في صفاء عميق من جمال أزلي.

ويخيَّل إليَّ أن الشمس تستريح إلى الأبد في زوايا تلك الهضبات الذهبية، وأن البياض الساحر الذي تنطبع به يختلط ببياض الثلوج التي تبقى إلى منتصف الصيف على القمم المرتفعة.»

وقال يصف في بيروت مآذن الجوامع والقلاع: «عندما انحدرتُ إلى الجهة المعاكسة للبحر شاهدت مآذن الجوامع العالية، شبيهةً بأعمدة مهجورة، تنتصب في أديم الصباح الأزرق المتموِّج، ووقع نظري على القلاع المغربية التي تخيِّم على المدينة، والتي تعشِّش في جدرانها المهجورة أغراس من التين البري والقرنفل وغيره.»

لامرتين ولادي إستانهوب

بينا لامرتين يجول في جبال لبنان استقبلته لادي إستانهوب، وهي امرأة إنكليزية متصوِّفة، كانت منذ سنوات تقيم في لبنان على أكمة صعبة المسالك، تحفُّ بها بهرجة وأبهة، كأنما هي أميرة خطيرة من أميرات الأساطير! وكانت تزعم أنها تقرأ في الغيب وتعرف حظوظ البشر.

على أن حقيقة هذه المرأة لا تزال مبهمة؛ فمن الناس من يقول إنها ساحرة، ومنهم من يقول إنها عميلة سياسية لدولة إنكلترا ... ولكن الأمر الذي اتُّفق عليه هو أنها تنبَّأت للامرتين بأنه سيرقى في السياسة إلى ذروة عالية.

قال لامرتين يتكلَّم عن زيارته للادي إستير إستانهوب: «نهضتْ لادي إستانهوب عن مقعدها الشرقي، وتقدَّمتْ نحوي بقوامها الفخور، مادَّةً إليَّ يدها وقالت: لقد جئتَ من بعيد لترى ناسكةً، فمرحبًا بك. لستُ لأستقبل إلا القليل من الغرباء، على أن رسالتك راقتني فوددتُ أن أتعرَّف إلى رجل يحب الله والطبيعة والعزلة كما أُحبُّها أنا. فاجلس ولنتكلم، فقد صرنا صديقين.

فقلت لها: إنك تتسرعين يا سيدتي، فتمنحين شرف الصداقة لرجل تجهلين اسمه وحياته. أتعرفين من أنا؟ فقالت: صدقتَ، لستُ أعرف من أنت ولا ماذا فعلتَ في الحياة

التي عشتها بين البشر، ولكني لا أجهل موقفك من الله، فلا تتخذني امرأة مجنونة كما يتخذني الناس، فثمَّة عِلمٌ فُقد اليوم من أوروبا، عِلمٌ وُلد في الشرق ولا يزال يعيش فيه، وهذا العلم أملكه أنا بنفسي؛ فإني أقرأ في النجوم. لا مشاحة في أن جميع البشر إنما هم أبناء إحدى هذه النيران السماوية التي أشرفت على ولادتنا، والتي طبعت سطوتها السعيدة أو المحتالة في أعيننا وجباهنا وقسماتنا وخطوط أيدينا وشكل أقدامنا وحركاتنا. أفتريد أن أكشفك لعينَي نفسك؟ أتريد أن أتنبأ لك عن حظِّك؟

فقلت لها باسمًا: كوني مطمئنة يا سيدتي، فأنا لا أنكر ما أجهل، ولا أؤكد أن في الطبيعة المنظورة وغير المنظورة، في الطبيعة التي يرتبط بها كل شيء، مخلوقات من طبقات سُفلى كالإنسان، ليست قائمة تحت تأثير مخلوقات سامية كالكواكب أو الملائكة؛ على أني لست بحاجة إليها لأعرف نفسي القائمة على الفساد والضعف والبؤس، أما ما يتعلق بأسرار مستقبلي، فأرى أن استفهام الإنسان عنها إنما هو حطٌّ من كرامة الله الذي يخفيها، ولستُ لأتكل في شأن المستقبل إلا على الله والحرية والفضيلة.

فقالت: لا فرق، فاعتقِدْ بمن تريد واتَّكل على مَن شئتَ، أما أنا فأرى أنك وُلدت تحت تأثير ثلاث نجوم سعيدة وقوية معًا، وأرى أن الله هو الذي قادك إلى هنا ليُنير نفسك، فهو بحاجة إلى من كان مثلك ينطوي على طموح وسلامة نية؛ ليستخدمه في الأعمال العجيبة التي سيعالج بها البشر قريبًا. أتعتقد أن ملكوت المسيح قد أتى؟

فقلت لها: وُلدت مسيحيًّا. فقالت: مسيحيٌّ! وأنا مسيحية أيضًا، ولكن الذي تسميه المسيح ألم يقل: إني أخاطبكم بالآيات، ولكن الذي سيجيء بعدي يخاطبكم بالروح والحقيقة؟ إذن هو هذا الذي ننتظره! هذا هو المسيح الذي لم يأتِ بعد، والذي سنراه بأعيننا.»

وقال دوميك: «لم تكن لادي إستانهوب ساحرة أو رمَّالة، ولم يكن لامرتين مكبث، على أن روح الشاعرية المعجونة بالتصوف والمشتهيات التي كان يضمرها، جعلته يؤمن بنبوءة هذه المرأة.»

أما الإيمان هذا فقد قوَّاه لامرتين بوقوفه على ضريح المسيح في أورشليم. قال ديكونيه: «ماذا ترى لامرتين يجد على ضريح المسيح؟ الإيمان الحي. فهو قد ذهب إلى قبر المسيح ليقوِّي الإيمان المسيحي الذي تلاشى في نفسه، وهو قد اتجه إلى أرض الأنبياء ليستوحي وحيًا جديدًا ... وقد خيِّل إليه في تلك الأرض المقدسة أنه دُعي ليصير نبي الفلسفة ومسيحها.»

قال لامرتين يصف زيارته لقبر المسيح: «إن كنيسة القبر المقدس هي أثر جميل من آثار العهد البيزنطي، وهي سرادق نبيل طرحته التقوى البشرية على ضريح ابن البشر. وإذا ما قابلنا هذه الكنيسة بكنائس العهد الذي بُنيت فيه، نجدها أفضلها جميعًا، فكنيسة القديسة صوفيا هي في شكلها أكثر بربرية وإن تكن أكثر فخامة، فإذا رؤيت من الخارج خيِّل إلى رائيها أنها جبل ترتفع فيه أكمات من الحجارة.

أما كنيسة القبر المقدس، فهي قبَّة أثيرية منقوشة يضاف إلى جمال أبوابها ونوافذها المزخرفة دقَّةٌ في العمل وحذقٌ في الفن؛ فالحجر في هذا الهيكل قد استحال إلى دانتيللا ليصبح جديرًا بالدخول في هذا الأثر المشيَّد لأعظم فكرة بشرية. ولا مشاحة في أن كنيسة القبر المقدس لم تبقَ اليوم كما كانت في عهد القديسة هيلانة، والدة قسطنطين ومشيِّدة هذا الهيكل؛ فملوك أورشليم رمَّموها وجمَّلوها بزخارف الفن المغربي والفن الغربي اللذين اهتدوا إلى قواعدهما في الشرق. إن هذا الأثر غير جدير بالقبر، ولكنه جدير بهؤلاء البشر الذين شاءوا أن يكرِّموه.

لقد استولى الترك على هذا الهيكل المقدس، استيلاءً مكَّنتهم الحربُ منه، إلا أنهم لم يهدموه ولم يشوِّهوا جهةً من جهاته، بل يحرسونه بخشوع واحترام وتقوى تقتضيها العبادة المسيحية. ولقد رأيتُ حرَّاس هذا الهيكل فلم أقع في وجوههم وحركاتهم وأحاديثهم على شيء من ذلك الاحتقار الذي يتهمهم به البعض. ولولا هؤلاء الترك لكان القبر المقدس الذي يتنازعه الأرثوذكس والكاثوليك من جهة، وسائر الطوائف المسيحية من جهة ثانية، قد استحال مائة مرة إلى موضوع خصام وجدال بين تلك الطوائف المتنازعة. إذن، أي ذنب اقترفه الترك؟ فحيثما يرى المسلم فكرة الله في روح إخوته يحترمها وينحني أمامها.

ألا فليتساءل المسيحيون بصدق ماذا كانوا فعلوا لو سلَّمتهم مقدرات الحرب مكة والكعبة؟ أكان باستطاعة الترك أن يقبلوا من جميع جهات أوروبا وآسيا ليكرِّموا بسلام الآثار المحفوظة للإسلام؟

وبعد أن جُلْنا جولة خاشعة في الهيكل المقدس انتهينا إلى الضريح، وهو لا يزال مغطى بشبه تابوت من الرخام الأبيض يحيط إحاطة تامة بالصخر الأول الذي حُفر فيه القبر، فشاهدنا مصابيح من الذهب والفضة تنير المعبد بدون انقطاع، ونشقنا فيه عطورًا تحترق ليل نهار.

إنَّ هذا القبر — في نظر المسيحي أو في نظر الفيلسوف، في نظر الحكيم أو في نظر المؤرخ — إنما هو الحد الفاصل بين عالَمَيْن، بين العالم القديم والعالم الجديد، وهو المركز

الأساسي لفكرة جدَّدت العالم، وحضارة بدَّدت كل شيء، وكلمةٍ دوَّت في الكرة الأرضية من أطرافها إلى أطرافها، وهو ضريح العالم القديم ومهد العالم الجديد. فما من حجر في هذا الملأ الأسفل استطاع أن يكون أساسًا لهيكل كهذا الهيكل، وما من ضريح خَصَبَ خصبه، وما من مبدأٍ دُفن ثلاثة أيام أو ثلاثة قرون استطاع أن يسحق بمثل هذا الانتصار الصخر الذي أغلقه الإنسان على هذا المبدأ ويكذب الموت بقيامة طلقة مستمرة.»

وكان ثمة حزن عميق ينتظر عودة لامرتين إلى بيروت؛ ففي السابع من شهر كانون الأول ماتت ابنته جوليا البالغة من العمر عشر سنوات على أثر داء في الصدر حملت جرثومته من فرنسا.

ولقد رأينا أن ننقل هنا رسالة ثمينة كتبها ده بارسيفال، صديق لامرتين ورفيقه في رحلته، وهي تتضمن عن مرض جوليا وموتها، تفاصيل لم تُكتب في موضع آخر. أما الرسالة هذه فقد وُجدت في حوزة الدكتور كابانيس الذي نشرها في جريدة «البحَّاثون والمتطفلون» في ٣٠ حزيران سنة ١٩١٣، وهذا نصها:

سيدتي

كلفني السيد والسيدة ده لامرتين أن أطلعك على الفاجعة الأليمة التي حلت بهما، فالموت قد اختطف ابنتهما الوحيدة، على حين لم يكونا يتوقعان هذه الضربة. فبعد الحمى الخفيفة وتقيوءات الدم التي انتابت جوليا في ماكون، قبيل المجيء إلى سوريا، تحسَّنت حالة الفتاة وبَعُدَ الخطر عنها، وصارت فرحة ضاحكة مشرقة. ولقد عزونا هذا التحسن إلى عذوبة المناخ الذي تمتَّعنا به، وإلى العناية التي احتيطت بها؛ على أن الفصل الرديء لم يكد يحلَّ حتى اعتادها السعال وتعبُ الحنجرة والحمى الخفيفة.

ولقد اعتنى بها طبيب كان السيد ده لامرتين قد صحبه معه في الرحلة، وطبيب إنكليزي آخر لا يقلُّ عن الأول خبرة وعلمًا؛ على أن جميع المساعي ذهبت أدراج الرياح، فماتت جوليا وهي بين ذراعَي والدها وأمها المسكينة، من غير أن تقاسي كثيرًا من الآلام وبدون نزع …

ده بارسيفال
بيروت، ١٥ كانون الأول ١٨٣٢

كان حزن الشاعر على وحيدته عميقًا جدًّا، حتى خُيِّل إليه أن سعادته قد تحطَّمت إلى الأبد، وكأنه لم يشأ أن يغادر ذلك الهيكل الميت في أرض لم يُولد بها آباؤه، فحنَّط جوليا ودفنها دفنًا موقتًا على قدم خرُّوبة مزروعة بالقرب من داره.

وكان عليه أن ينتظر قدوم الربيع ليتمكَّن من العودة إلى فرنسا، فانتظر ثلاثة أشهر كئيبة في بيروت، وفي أحد الأيام شعر بالحزن يملك عليه جميعَ مشاعره، فكتب إلى صديقه فيريو يقول: «لقد كتبتُ إليك أُطلعك على النكبة التي نزلتْ بي فهدمتْ مستقبلي وجهَّمت في عيني جميع ألوان الحياة. وها أنا اليوم مسمَّر في مكاني ريثما يسمح لي الربيع القادم بالعودة إلى فرنسا ... أما حياتي في هذا العالم فقد انتهت، وأصبحتُ أعيش كما تعيش البهيمة ...»

وشاء لامرتين أن يروِّح عن نفسه، فترك بيروت في الثامن عشر من شهر آذار، وراح يطوف بين خرائب بعلبك ودمشق، في حين كانت زوجته الحزينة تزور الأماكن المقدسة. وفي اليوم الثلاثين من شهر نيسان، سافر الشاعر وزوجته والحاشية إلى يافا، ومنها إلى القسطنطينية، حيث صرفوا شهرين كاملين بعد أن أرسلوا تابوت جوليا إلى مرسيليا؛ على أن طارئًا فجائيًّا طرأ على لامرتين في إحدى قرى البلغار، وفي كوخ قائم على قدم جبل هاموس؛ فقد أُصيب بداء ذات الرئة، وهو بعيد عن أصدقائه لا يواسيه ويعتني بأمره، إلا زوجته الثكلى. ولقد كان الدكتور ديلاروايير وده بارسيفال قد تقدما الشاعر وزوجته إلى فرنسا، ولم يبقَ من الحاشية إلا ده كامبا، وهو رجل عجوز لا يستطيع أمرًا. إلا أن العناية شاءت أن يُشفى لامرتين من دائه ويواصل سيره إلى فرنسا؛ ففي منتصف شهر تشرين الأول، في حين كانت زوجته تستريح في تورين مما ألمَّ بها من الأتعاب والمصائب، قصد هو إلى مرسيليا ليجيء بتابوت ابنته، ولقد حمله توًّا إلى سان بوان ودفن الجثة في الكنيسة الصغيرة التي دُفنت فيها بقايا والدته.

قال دارغو، صديق الشاعر، إن لامرتين صرف الليل الذي أعقب دفن الجثة في الكنيسة الصغيرة يتحدث إلى روح وحيدته. وقال دارغو نفسه إن لامرتين أرسل إليه في اليوم التالي كتابًا يقول فيه: «لقد وضعتُ في الليلة الفائتة تابوت وحيدتي على تابوت أمي: كلٌّ ماضيَّ وكلٌّ مستقبلي، ولقد انسحقتُ جسديًّا وروحيًّا ولم أبقَ أقوى حتى على الكتابة ...»

وفي العام ١٨٣٤؛ أي بعد مرور أربعة عشر شهرًا على موت جوليا، كتب لامرتين قصيدة لذكرى وحيدته، وقد نُشرت هذه القصيدة في كتاب «رحلة إلى الشرق» قبل أن تُنشر في صحيفة أو في ديوان، وقبل أن يقرأها لامرتين نفسه على مسمع من أصدقائه. وهذه

القصيدة أصبحت اليوم مشهورة ولا تقل ذيوعًا عن القصيدة التي نظمها فيكتور هيغو لذكرى ابنته ليوبولدين التي ماتت غرقًا، وإنا لننقل هنا بعض فقرات منها:

رضعتُ الآلام من ثدي أمي، فقلبي لا ينفض إلا دموعًا بدل الدم. ولقد اختطف الله مني لذَّة هذه الدموع فإنه جفَّفها في قلبي. فالحسرة أصبحت عسلي، وأصبح الحزن غِبطتي، وصرتُ أشعر بفطرة أخوية تجذبني إلى أي تابوت كان، وصرتُ لا أجد طريقًا توقفني إلا إذا شاهدت فيها خربة أو حدادًا!

كانت جوليا الحطمة الوحيدة من حطم عاصفتي الطويلة، والثمرة الوحيدة من تلك الأزهار التي قطفتها، كانت دمعة في رحيلي وقُبلة في عودتي، وعيدًا دائمًا في بيتي الطوَّاف، كانت شعاعًا من الشمس على نافذتي، وعصفورًا غردًا يشرب على فمي، ونفسًا موسيقيًّا يتصاعد في الليل بالقرب من مرقدي.

بل كانت أكثر من ذلك كله، كانت — وا حرَّ قلباه — صورة أمي، وكان يخيَّل إليَّ أن نظرات أمي تعود إليَّ في عينيها. كان صوتها صدى عشر سنوات من الغبطة، وكانت قدمها في البيت تملأ الهواء سحرًا وعذوبة، وبصرها يصعد الدموع إلى عينيَّ، وابتسامتها تضيء في قلبي.

ولم تكن نظراتي وقلبي، وهي تُسكِرني غبطة وصلاة؛ لتنتبه إلى أن جبينها يُثقِل ذراعي من يوم إلى يوم، وأن قدميها تُثلِجان يديَّ كالحجر ... جوليا! جوليا! لماذا تشحبين؟ ... فيمَ هذا الجبين المبلل؟ وهذا اللون المتبدِّل؟ تكلَّمي! ابتسمي لي! وافتحي لي عينيك لأقرأ فيهما! ...

إلا أن زُرقة الموت كانت تزنِّر شفتها الوردية، وكانت الابتسامة تموت عليها حالما تولد، ونَفَسها المقتضب يزداد سرعةً كخفقان جناح يجثم. وعندما حملت روحها في آخر نفس، مات قلبي في صدري كالثمرة التي تحملها المرأة في أحشائها ميتة باردة!

لئن كانت إيطاليا هي التي كشفت للشاعر مغاني النور، فالشرق هو الذي كشف له المدى الذي لا حدَّ له، وجمال الصحراء القاحل. فأمام آثار بعلبك وأمام عظمة أرز لبنان رحبت مخيلة لامرتين، وفي وسط الآلام والوحدة وتجاه مشاهد الطبيعة والماضي اكتسبت مخيلته ذلك النشاط وتلك الرحابة اللذين بقي محافظًا عليهما طوال حياته.

إن في روح لامرتين وفي مخيلته جمالًا شرقيًّا تغلَّب على الجمال الغربي الذي انخسفت آياته لدى انعكاس المشاهد الشرقية عليها. جاء لامرتين إلى الشرق ليبحث عن ذلك الجمال

المحتجب وراء أكماته وبين أنقاضه، فتراءت له بقايا الأديان والتقاليد والفن والجمال، فرحَّبت مخيلته وروحه بهذه الآثار وحمل أسرارها إلى بلاده. فمَن يُطالع روايته «سقوط ملاك» يرى روح الأنبياء، أنبياء التوراة، متقمِّصة في شذرات من السِفر القديم. ومن يطالع روايته «جوسلين» يرى في وصف مغارة النسور أو في وصف الشتاء والصيف والربيع والخريف ذلك الوصف الذي أعاره الشاعر لجبال الدوفينه صورة واضحة عن صنين وجبل الكرمل. ومن يتمعَّن في هيئة الفلاح الذي هدى جوسلين إلى مغارته يتمثَّل له الفلاح اللبناني بعباءته ومهمازه.

تأثير الشرق في لامرتين

قلنا إن مخيلة لامرتين رحبت أمام آثار بعلبك وعظمة أرز لبنان، وإن الشرق كشف له عن المدى الذي لا حدَّ له، فـ «جوسلين» لم تكن سوى قصيدة في أربعة أناشيد صغيرة نظمها الشاعر قبل مجيئه إلينا؛ إلى الشرق، على أنه ما كاد يرجع إلى فرنسا حتى عاد إلى قصيدته فرحبها بما أشرب في روحه ومخيلته من مشاهد الشرق الجميل.

ولم تكن «سقوط ملاك» أيضًا سوى هيكل قصيدة رحبة حلم به الشاعر في طريق فلورانسا قبل سفره إلى الشرق؛ على أنه لم يكد يطوف في أرض الأنبياء حتى نضجت تلك القصيدة في مخيلته وقلبه. فتلك الطبيعة المسيحية التي أبرزها الشاعر في «جوسلين» بشكلها الحديث وبكل ما فيها من التنازع والتضحيات، أراد هذه المرة أن يبرزها هي نفسها بشكلها الإنساني الذي يمتُّ إلى العصور الأولى، فسيدار الملاك ودائيده الابنة التي تنتسب إلى إحدى قبائل البشر الأولى، هما البطلان اللذان ذهب لامرتين لكي يبحث عنهما في بلاد الطوفان وبالقرب من مصادر الزمان.

تعرَّف سيدار، الملاك الساقط، إلى دائيده وأحب كلٌّ منهما الآخر على مرتفعات لبنان أولًا، ثم انتقلا إلى شواطئ العاصي، ولقد صوَّر لامرتين حولهما تقاليد القبائل الرحَّالة التي تعوَّدت الخضوع إلى عنف غرائزها الأولى، ثم مضى بهما إلى بابل، قاعدة الحضارة البشرية التي تقدَّمت الطوفان، وكان ثمة شعب وديع خانع، تسلَّط عليه قوم رفعوا نفوسهم إلى مصاف الآلهة، فوقع الزوجان بين أيدي هؤلاء الظالمين، وراحا يذوقان من العذاب ما لا يقوى عليه الإنسان، إلى أن قدِّر لهما الهرب إلى مجاهل الصحراء حيث قضى عليهما العطش والجوع.

وكان سيدار ودائيده قد فرَّا من وجه القبائل المنتشرة على شواطئ العاصي قبل أن يقعا في قبضة الجلَّادين الجبابرة، آلهة بابل، وراحا يهيمان على وجههما في مرتفعات جبل الكرمل، حتى اهتديا إلى مغارة يقيم بها ناسك متعبِّد لله الحقيقي. وكان هذا الناسكُ الصالحَ الوحيدَ في ذلك الزمن الطافح بالمفاسد والموبقات، فأخذ يقرأ عليهما شذرات من السفر القديم، وهذه الشذرات أو هذا الإنجيل الفلسفي إنما هو مختصر الشرائع الدينية والاجتماعية التي أراد الشاعر أن يبثَّها في البشر. ولقد استوحاها من أسفار التوراة ومن سفر الاشتراع بنوع خاص. جاء في هذه الشذرات ما يلي:

علموا أبناءكم اسم الله السماوي كما تسقونهم قطرات الحليب عندما يجوعون؛ حتى يذوقوا عذوبةً ولذةً قبل مرارة الحياة! سيكون اسم الله غوث البريء في محاكمته، ونيران المجرم في تخفِّيه! سيكون اسم الله صديق الأجذم، وقاضي العبد، ووصي الأرملة والقاصر! سيراه البائسون والمنقطعون من أعماق أوجاعهم يضيء كالشعاع خلال دموعهم.

لا تضع حدًّا بين أمَّة وأخرى، وإذا قيل لك إن هذه الذرِّية لشرسة، وهذا النهر يفرِّق بينك وبينها، أو إذا قيل لك إن هذا الجبل يفصلك عنها، فقل لمن يقول لك ذلك إن الله يرانا جميعًا ويباركنا، والفضاء يجمعنا، والسماء تسترنا.

لا تنزع الغصن مع الثمرة، فطوبى لليد التي تزرع وعارٌ على اليد التي تسيء! لا تترك الأرض عارية قاحلة، فآباؤك رأوها خصبة عند مجيئهم.

لا تشمت بالتراب الذي تحت قدميك، فسوف تجد فيه مرقدك الأخير. واقتسم الأرض بينك وبين إخوتك، فالله لم يتقاضَ منك ثمنًا لها. تعاضدوا في المصائب وكونوا إخوة وآباء، ولتكن الرحمة عدلًا بينكم! تلفَّظوا بالحقيقة دائمًا فلا تحتاجوا إلى القسم. دعوا خبزكم على عتبة كهوفكم للجائعين، واتركوا بعض ثمار على غصونها لعابري الطرق.

لا يكن عندكم شرائع ولا مجالس لمحاكمة المذنب، ولا تبيحوا للقاضي حق القتل لينتقم للموت بالموت! لا تُجلِسوا بينكم قضاةً يرتكبون الإثم خفية ويعاقبونه جهرًا! بل هذِّبوا نفوسكم وأخلاقكم بالعلوم، فتشعروا بالقاضي والجلاد في ضمائركم! لقد وهبَتْكم السماء عاطفة الغفران فاغفروا. إن هبة الغفران لأعظم هبات الله للإنسان.

هذه اللهجة التي خاطب بها لامرتين أبناء جنسه في فم الناسك، هي التي خاطب بها الله بلسان موسى جميع بني إسرائيل في البرية. خاطب موسى شعب إسرائيل في الإصحاح الأول من سِفر التثنية قائلًا: «اسمعوا بين إخوتكم واقضوا بالحق بين الإنسان وأخيه ونزيله. لا تنظروا إلى الوجوه في القضاء. الصغير كالكبير تسمعون. لا تهابوا وجه إنسان لأن القضاء لله.»

وخاطب موسى شعب إسرائيل قائلًا: «إذا خبطتَ زيتونك فابقِ على غصونه بعض ثمار لعابري الطرق، وإذا حصدتَ حقلك ونسيتَ فيه بعض رزم فلا ترجع لتأخذه، إنه لليتيم والفقير والأرملة يكون.»

والتوراة هي أيضًا نفحة من الشرق! وكما أحسن الشرق إلى لامرتين عندما أوحى إليه أسطع كواكبه إن في نثره وإن في شعره، هكذا لامرتين فقد أحسن إلى الشرق وإلى سوريا ولبنان بنوع خاص.

لم يكن لامرتين كهؤلاء الكَتَبة الأوروبيين، الذين مروا في هذه البلاد مرور الطيف، وكفاهم أسبوع أو أسبوعان ليكتبوا عنها المجلدات ويصفوها من أطرافها إلى أطرافها، بل كان من هؤلاء الذين يحترمون نفوسهم، ومَن كان يحترم نفسه يحترم الغير، فلا يبخسه حقه في تقاليده وعاداته، ولا يشوِّه نواحيه الجميلة بفلتات من اللسان تدل على تحامله أو على جهله.

كان لامرتين أول من عرَّف الأوروبيين إلى سوريا ولبنان، وكشف لهم تلك الكنوز الشعرية المطمورة فيهما. ولقد نظر إلى آثارنا نظرة احترام وإعجاب وهو يعلم، حقَّ العلم، أنها ليست بقايا مدافن طواها الزمن، بل مدنية عظيمة لا تزال الحياة تتمشى بين رسومها وأنقاضها!

قال يصف هياكل بعلبك: «تراءت لنا في الشفق البعيد جمهرة من الخرَب المصفرَّة، تذهِّبها الشمس المنحدرة إلى المغيب، وتنفصل رويدًا رويدًا عن أخيلة الجبال لتغيم في شفافة من أشعة المساء. فأشار الأدلَّاء إلى هذه الخرب هاتفين: بعلبك! بعلبك! كانت تلك الخرب الجبارة معجزة الصحراء، بعلبك الساحرة التي خرجت من ضريحها المجهول لتقص علينا أنباء الأعمار التي فقد التاريخ تذكارها.

فلما بلغنا إلى تلك الهياكل العجيبة، لبثنا مذهولين أمام السحر المنبثق من أطوادها الساحقة، وأمام قطع الغرانيت الأحمر والأشهب، والرخام الأبيض، والحجارة الصفراء، والأعمدة المفرَّضة، والتماثيل المطروحة على الأرض، يمتزج بعضها ببعض كحمم بركان لفظ بقايا دولة عظيمة!

ولما هبط الليل صعد القمر في السماء الصافية، وعبر بين شقوق جدار كبير من الحجارة البيضاء، وتخاريم شرفة عربية تطل على الصحراء! عند هذا استولى علينا ذهول غريب، واستسلمنا إلى أحلام عميقة، أما ما فكرنا به في تلك الآونة، وفي ذلك المكان البعيد عن العالم الحي، في ذلك العالم الميت، أمام شهود الماضي المجهول الذي يقلب بطنًا لظهر جميع افتراضاتنا في التاريخ وفلسفاتنا في البشر، فالله وحده عليم به.»

وقال يصف روعة المناظر اللبنانية، وقد صوَّرها بريشة لم يحملها شاعرٌ لبنانيٌّ إلى الآن: «صعدنا نتسلق الجبال، فأبصرنا وراءنا البحر يحتجب رويدًا رويدًا عن الأنظار، وقد انبثق الفجر وأطلَّت شعفات القمم تذوب على رءوسها أكواد الثلوج، فتراءت لنا الصحراء الفسيحة تلمع تحت بخارها الناري كقطعة من الحديد أعارتها النيران لونها الأحمر، أو كمحيط عظيم لا شواطئ له تسبح فيه الشمس والجبال والغيوم!

بقينا ثلاثة أيام نسير في طريق وعرة، فنجتاز المجاري المتحدِّرة من أعالي الجبال، ونمر على خيم العرب المنتشرة هنا وهناك، كأنها صخور بيضاء تلمع خلال الأغصان، وعندما يهبط الليل نحلُّ ضيوفًا مكرَّمين على قبائل الفلاحين؛ فالشرق يكرم الضيف أيًّا كان، حتى سمعنا أجراسًا تدوي في الأبعاد الشاسعة، فأدركنا أننا على مقربة من جبال الأرز، وما زلنا نسير حتى تراءت لنا أغصان الأرز، تلك الأشجار الجبارة التي غرسَتْها يمينُ الله، وتوَّجت بها جبين ملك العواصف. ولما بلغنا إليها أحسسنا برهبة عظيمة تستولي على نفوسنا، وجعلنا نحدق إلى اللجج العميقة التي تكتنف تلك الأشجار الباسقة الغضَّة، فأشار الدليل إلى فرجة حفرتها المياه، ونحتت عليها نقوشًا مختلفة، وإلى فرجة قاتمة تنفتح عن مطارح صعبة كَئود يقوم في وجهها صخر كبير، كأنه جدار الطبيعة يتدلى عليه غصن من الأرز متهدِّل الأوراق، فبصرتُ بنقاط من الزبد عالقة بثنياته، تضطرب عليها أشعة الصباح المسكرة.»

كتاب لامرتين عن الشرق

لا مشاحة في أن لامرتين سلك في المؤلَّف الذي وضعه عن الشرق طريق الأدب، كما سلك طريق التاريخ؛ فهو قد شاء أن يزخرف بعض المشاهد، فبالغ في وصفها وتلوينها بحرية مطلقة، حتى إنه اختلق كثيرًا من المشاهد التي استوحاها استيحاء من الشرق.

ولقد وضع الدكتور ديلاروايير، رفيقه في رحلته، كتابًا موجزًا عن الرحلة التي قام بها مع الشاعر الكبير، جاء تصحيحًا وافيًا للحقائق التي بالغتْ في أداءها مخيلةُ الشاعر، الذي عمد في تلوين مشاهده إلى مجاراة الكاتب الكبير شاتوبريان الذي تقدَّمه في وصف الشرق.

على أن الشاعر، وإن يكن وفِّق في ألوانه الساحرة، إلا أنه لم يستطع مجاراة متقدِّمه في الأنوار المنبعثة من الصور، وفي تحليل الألوان والظلال، وهو، وإن لم يكن استطاع أن يرتفع في دقة الفن إلى مستوى شاتوبريان، إلا أنه بقي أشعر منه وأشد حسًّا وعاطفة.

ولم يكن قصد لامرتين من سياحته في الشرق أن يضع مؤلَّفًا، قال: «لا أظنني أضع كتابًا عن رحلتي، وما قصدي من السياحة إلا البحث عن تأثيرات خاصة.» ولكنه لم يكد يعود إلى بلاده، حتى أخذ صديقه دارغو يلحُّ عليه في كتابة مذكراته، وكان لامرتين في حاجة قصوى إلى المال، فلم يجد بدًّا من كتابة هذه المذكرات ونشرها، ولقد باع الثلاثة المجلدات الأولى بمبلغ مائة ألف فرنك دُفعت نقدًا.

وكأن المشاغل السياسية ألهته عن مواصلة العمل، فعاد إليه في منتصف صيف العام ١٨٣٤، وفي ٢٤ أيلول من هذا العام نفسه كتب إلى فيريو يقول: «لقد أنجزتُ نسخة مذكراتي السيئة ...» وفي ٢٥ كانون الثاني من العام ١٨٣٥ كتب إلى فيريو يقول: «سأُرسل إليك قريبًا أربعة مجلدات صغيرة تحتوي مذكراتي البائسة التي تُطبع اليوم بعجلة. إني خجول بها، وكنت أودُّ أن أسترجعها لو لم أكن بحاجة مزعجة إلى المال ...»

وظهرت المجلدات الأربعة في ٦ نيسان ١٨٣٥، فصادفت نجاحًا كبيرًا من حيث الرواج، إلا أنها أثارت انتقادات قاسية عنيفة، ولدى مرور شهرين على انتشارها كتب لامرتين إلى صديقه فيريو يقول: «هل قرأتَ مذكراتي؟ فقد أثارت انتقادات قاسية في جميع الأوساط السياسية والأدبية والدينية، إلا أن القراء المجردين أقبلوا عليها إقبالًا عظيمًا وتذوقوها، فقد بيع منها عشرون ألف نسخة بين بلجيكا وهنا، أما ألمانيا وإنكلترا فقد طفحتا بها، وبين يديَّ الآن ترجمتان إنكليزيتان، وأما مقالات الصحف فهي مُرَّة بحقي، وإني أشعر بالملكيين والجمهوريين ورجال القلم جميعًا يهوون على ظهري، إلا أن هذا كله لا يؤثر بي أكثر من تأثُّري بقطرة مطر تسقط على قبعتي في عاصفة من عواصف الربيع ...»

انتصار البلاغة

في أواخر شهر آذار من العام ١٨٣٣، في حين كان لامرتين يزور خرائب بعلبك، ناوله أحد الفرسان العرب رسالة من شقيقته، مدام ده كوبان، تُطلِعه فيها على أنه انتُخب عضوًا في مجلس النواب. ولم يكد لامرتين يدخل إلى المجلس حتى اتخذ لنفسه برنامجًا خاصًّا؛ وهو اعتناقه المبادئ، واحتقاره الأحزاب السياسية بما فيها من قصر النظر والمساومات القبيحة. وما عتَّم الأمر أن راح زملاؤه يتجنبونه ويحذرون شرَّه، وكثيرًا ما كانوا يتهمونه بأنه يعالج

سياسة شعرية خيالية. على أن تاليران كان ينظر إلى لامرتين بعين أصدق وأجلى؛ ففي أحد الأيام كان لامرتين مدعوًّا إلى وليمة دُعي إليها تاليران، السياسي الفرنسي العظيم، وكان وقتئذ في الثانية والثمانين من العمر، فلما انتهى الغداء دنا تاليران من الشاعر وطلب إليه أن يتحدثا على حدة، وإذ اختلى الاثنان قال تاليران للامرتين: «لقد دخلتَ في المسائل دخولًا جميلًا.»

فأجابه لامرتين مستغربًا: «أنا يا سيدي الأمير؟ في المسائل؟ أظنُّك تمزح، فأنا باقٍ في الخارج، أو على مقربة من هذه المسائل. إني أعتنق فكرًا لا حزبًا.»

فاستطرد تاليران بصوته النحاسي الفخور قائلًا: «إنه لاتِّضاع عجيب! قلتُ إنك دخلتَ في المسائل، في مسائل هذه البلاد بصدق وجرأة لم يسبقا لأحد منذ تموز إلى اليوم. إن المسائل تسير بسرعة، أنت تسير أيضًا بسرعة مثلها، وقد لا يمر وقت قصير حتى تقبض على زمام البلاد.»

قال الشاعر لصديقه فيريو عُقيب هذه المقابلة بينه وبين تاليران: «ما رأيك بهذا الدماغ البالغ من العمر اثنتين وثمانين سنة؟ كنتُ أظنُّه ينظر إليَّ نظرته إلى خياليٍّ يحلم بعيدًا عن أي عمل كان.»

ولكن تجرُّد لامرتين ما لبث أن ظهر في المجلس ظهورًا واضحًا، بفضل الخطب البليغة التي كان لها في المجلس تأثير كبير، والتي تلقَّاها الرأي العام بعواصف من التصفيق. وفي أواخر السنة ١٨٣٨ نال فوزه الأول في السياسة بدفاعه عن وزارة موله في وجه الحزب المعارض، الذي كان يرغب في إسقاط الوزارة، والذي يديره غيزو وتيير وأوديلون بارو. وإذ كان يدافع عن هذه الوزارة كان يوجِّه إلى خصومه وأصدقائه معًا حقائق صارمة كهذه مثلًا: «لا ينبغي لكم أيها السادة أن تتصوروا أن جميع الناس تعبون مثلكم، إن كنتم تشعرون بتعب من الحوادث الخطيرة التي هزَّت هذا العصر وهزَّتنا معه، فالأعقاب التي تكبر وراءنا ليست تعبة، وهي تريد أن تعمل وتتعب بدورها!»

وكان أن مائتين وواحدًا وعشرين نائبًا صوتوا مع لامرتين تأييدًا للحكومة. ومنذ ذلك الوقت أصبح لامرتين زعيم مبادئ وأفكار، لن يلبث أن يضم حوله الفئة النيرة في المجلس، ومنذ ذلك الوقت أيضًا تمكن من موهبته الخطابية التي بقي خمس سنوات يمرِّنها في المجلس، والتي رقي بها أخيرًا إلى مستوى أعظم خطباء أوروبا. قال كورمنين، النقَّاد المر: «إن لامرتين يرتجل في أي موضوع كان بجرأة وحماسة وذوق وجاذب، وبعبارة ملونة غنية بالصور والأفكار، لا يتاح لأي خطيب في البشر أن يجاريه فيها.»

ومن أروع الخطب التي ألقاها لامرتين في المجلس، الخطاب الذي ارتجله عندما حملت الباخرة رفات الإمبراطور نابوليون من جزيرة القديسة هيلانة، واختلف أعضاء المجلس على المكان الذي يصلح لأن يكون مقرًّا أخيرًا لقاهر أوروبا. قال: «أعترف أمامكم، أمام هذا المجلس وأمام هذه الأمة المضطرمة شوقًا إلى تذكار، أنني لا أنظر من غير أسف إلى بقايا هذا الرجل العظيم، تبكِّر في النزول من تلك الصخرة، في وسط ذلك المحيط الذي اتجه إليه إعجاب العالم وتقواه ليأتينا بها من خلال لجَّة آلامها.»

فقاطعه النائب أوديلون بارو بقوله: «أطلب الكلام ...» فاستطرد لامرتين قائلًا: «أرجو من حضرة الخطيب الذي يقاطعني ألا يحكم على فكرتي قياسيًّا، فهي وطنية بقدر ما هي فكرته. أجل، أيها الأسياد، معاذ الله أن ألوم الحكومة التي نزلت على فطرة البلاد النبيلة، أو الفكرة الملكية التي تنادي من المنفى رفات القائد العظيم. لقد أبصرتُ بأمِّ عيني ضريح ثميستوكل، وقد أُهيب به هو أيضًا من المنفى ليرقد على شاطئ البحر تجاه سلامين، ولقد باركت روح أثينا لأجل ذلك، كما ستبارك الأجيال روح فرنسا أمام الضريح الذي ستختارونه، إلا أني لا أحسبها إهانة لذكر نابوليون أن يبقيه الحظُّ مدة بعد تحت صفصافة سنت هيلين.

كان الأقدمون يتركون فسحة من الوقت تمر بين موت الأبطال ومحاكمة الأجيال، فعندما تكون أحكام التاريخ خالية من الأغراض تصبح وهي ثابتة لا ترد، وقد تكون هذه البقايا لم تزل مضطرمة فلا يصح أن تمسها يد! إن العدالة تربح من هذا التأني، ولا يخسر المجد ومعرفة الجميل شيئًا ... ولكن، عُرض على فرنسا أن يرجع إليها ذلك القبر، فلم تجد بدًّا من أن تنهض بأسرها لتستقبله وتحضنه في ضريح وطني. إذن فلنتقبله بتأمل، ولكن من غير تعصب، وليسمع الشعب صوت العقل في وسط ذلك الإعجاب الذي لا يُسمع منه إلا صوت الأبهة والمجد؛ فلا ينبغي لنا أن نكون أكثر فخرًا بنبوغنا منا بالحقوق التي لنا. إني وإن كنت أحد المعجبين بهذا الرجل العظيم، إلا أني لا أترك للحماسة سبيلًا إليَّ من غير بصيرة! إني لا أسجد أمام هذا التذكار، ولست من ذلك المذهب النابوليوني، أو تلك العبادة القائمة على القوة التي يريد البعض أن تخلف مذهب الحرية الرصين في روح الأمة.

لا أعتقد أنه من الحكمة أن نؤلِّه الحرب من غير انقطاع ... فلقد سمعتُ مرة أحد الفلاسفة يؤلِّه المجد ويعزو الألوهة إلى هذا الطاغية، فضحكتُ منه ... فهذه البدع البراقة ليست خطرة في فم الفيلسوف، فهي قياس باطل لا غير، ولكنها تتخذ طابعًا آخر في فم الرجل السياسي. إن القياسات الباطلة في الحكومات لا تلبث أن تصبح جرائم الأمم

أو نكباتها! فحذارِ أن تعطوا حسامًا كهذا الحسام، لعبةً لشعبٍ كهذا الشعب! وكما أني لست متهوِّسًا، هكذا لا أريد أن أكون خبيثًا، ولا أريد أن أعتنق مذهبًا لا أجد بذرة له في قلبي أو في روحي!

يجب علينا، نحن الذين ينظرون إلى الحرية نظرة رصينة، أن نزن براهيننا، فلا نخدع رأي شعب يجيد فهم ما يبهره أكثر مما يجيد فهم ما يحتاج إليه، فحذارِ أن نجعله يحتقر هذه النظم الأقل سطوعًا والأكثر وطنية من تلك، وهي التي نعيش في ظلها، والتي مات آباؤنا في سبيلها بعد أن قاتلوا حقبة من الزمن! حذارِ أن نمحو حكومة العقل! يؤكد لنا الوزراء أن العرش لا يتضاءل أمام ضريح كهذا، وأن تلك المواكب وتلك التيجان الموقتة التي وُضعت على ما يسمى حلالًا، وتلك النشرات الشعبية، والملايين من المجلدات التي تعبِّر عن الأفكار النابوليونية، وذلك التعبد للانتصارات لا خطر منها على مستقبل الحكومة الممثَّلة، ولكني أخشى أن يردَّد على مسامع الناشئة: لا شعبيَّ إلا المجد، ولا نتيجة إلا في الانتصارات؛ كونوا عظماء واعملوا ما يبدو لكم، اشهروا حروبًا، واكسبوا مواقع، واجعلوا نظم بلادكم لعبة … أبهذه التعاليم تصل الأمة إلى معرفة حقوقها؟ …

لو كان هذا القائد العظيم رجلًا عظيمًا كاملًا، لو كان واشنطون أوروبا، لو أنه بعد أن دافع عن الوطن وأدبَّ الذعر في أخصام الثورة في الخارج، أيَّد التنظيمات الحرة، وثبَّت ظهور الديموقراطية في فرنسا، لو أنه بدل أن يجعل نفسه رجعة حيَّة للماضي، فيتصرَّف بالحكم المطلق ويستثمر هوس الروح الموقت، تنحَّى هو نفسه كصولون أو كواضع شرائع أمريكا، ولو أنه تنحَّى في نزاهته ومجده ليترك المكان للحرية، قد تكون جميع هذه الاحترامات التي يرفعها إليه جمهورٌ يخص بالعبادة من يسحقه قد جنحت عنه، وقد يكون رقاده في ضريحه أكثر سلامًا منه اليوم.»

الشعر في السياسة

كان لامرتين، على انغماسه في السياسة، يجد متَّسعًا لاستقبال عروس شعره؛ فقد كان يصرف فرص الصيف في قصره بسان بوان ساعيًا جهده لنسيان السياسة — إن كانت السياسة تتخلى دقيقة عمن يعتنقها — والرجوع إلى قيثارته. إلا أنه كثيرًا ما كان يقاطع عمله ليستقبل زوَّاره، وقليلًا ما كان هؤلاء الزوار يهادنون في الهبوط عليه؛ فلامرتين في ذلك الوقت كان غنيًّا وعظيمًا، وكان عليه أن يستقبل ويضيف أمراء الفكر ورجال الفن

والخطباء والسياسيين وملكات الجمال والجاذب والشعراء والكتبة والصحفيين الذين كانوا يفدون عليه جماعات جماعات.

على أن هؤلاء الزوار لم يكونوا يستطيعون الحيلولة التامة بين الشاعر وعروسه؛ فبعد أن نشر «جوسلين» و«سقوط ملاك»؛ الروايتين الشعريتين اللتين أنجزهما في وسط مشاغله السياسية، راح يعد للطبع ديوانًا جديدًا، إلا أنه كلما كان يكبر ويسمو في مقام السياسة والخطابة كان الجمهور يقصيه عن مقامه الشعري. على أن هذا الإقصاء المتكلف لم يكن يسلخه عن عروسه، بل كان يستقبلها ويستقبل السياسة معًا.

جوسلين[٣]

في أواخر شهر شباط من العام ١٨٣١ ظهرت «جوسلين»، وهي رواية شعرية مؤسَّسة على فكرة التضحية، فراجت رواجًا عظيمًا، إلا أنها لم تسلم من لذعات النقاد، الذين حملوا على الشاعر حملات عنيفة؛ فقد أخذوا عليه نقصًا في وحدة القصيدة وضعفًا في بعض مقاطعها، وأخذ عليه دكاترة الدين مآخذ شتى، فقد أبى بعضهم إلا أن يرى في «جوسلين» تحاملًا على الإكليروس وعلى المسيحية معًا، وهذا ما دعا لامرتين إلى الرد على هذا البعض بقوله: «يضلُّ القارئ إذا هو رأى في «جوسلين» غير الوجهة الشعرية، فليس ثمة مقصد خفي، ولا مذهب من المذاهب ولا جدال لنقض إيمان ديني أو لتأييده، وليس موضوع روايتي هذه من المخترعات، بل هو حادث حقيقي.»

سقوط ملاك[٤]

لم تكد «جوسلين» تظهر حتى كتب لامرتين إلى فيريو يقول: «سأُصدر بعد مرور ثمانية عشر شهرًا رواية شعرية في مجلدين، تختلف اختلافًا كبيرًا عن «جوسلين»، وهي الصفحة الثانية من ملحمتي الهندية ...»

ماذا يقصد لامرتين بالملحمة الهندية؟ أيقصد أنه يفكر في كتابة ملحمة عن الهند؟ لا، بل إن القصيدة، التي فكَّر فيها وهو على طريق روما، ستكون شبيهة بالملاحم التي وضعها الشعراء الهنود كملحمتَي «مهابهارتا» و«رامايانا».

---

[٣] نقلها إلى العربية واضع هذا الكتاب.

[٤] نقلها إلى العربية واضع هذا الكتاب.

وكان الشاعر قد فكَّر في أن يبني روايته هذه على الموضوع الآتي: «تجري مشاهد الملحمة قبل أيام قليلة من اليوم الأخير. ثمة شابٌّ جالس بين خرائب مدينة لا اسم لها، يُبصره قوم مارون، فيسألونه من هو، ومن أين أتى، وماذا يريد؟ فيجيبهم أنه رجل، ولكن أشقى البشر أجمعين؛ لأن البشر يريحهم الموت في الآخر، أما هو فليس الموت لديه سوى رقاد قصير أو فترة بين آلامه؛ لأنه قُضي عليه أن يموت ثم يُبعث ثم يموت ثم يُبعث إلى أن يطهر في نظر الله. كان هذا الشاب قبل الخليقة فيسرد مشاهد الخليقة على مسمع القوم ...»

على أن لامرتين ما لبث أن عدَّل موضوعه هذا، ومن هذا التعديل الذي استوحاه من الشرق خُلقت روايته «سقوط ملاك». وإليكم موضوعها: «يُعهد إلى ملاك — قبل الطوفان — أن يحرس إحدى بنات حواء، وهي أجمل روائع العلي العظيم، فيهيم بها ويتمنى أن يصير بشريًّا ويمتلكها ولو دفع الموت ثمنًا لهذا الامتلاك؛ فيغضب الله عليه ويمنحه مشتهاه فيحوِّله إلى إنسان بعد أن يحكم عليه بأن يفقد من يحب، ولا يجتمع به في السماء إلا بعد أن يتطهر بالحياة والموت مرات عديدة. ثم يأتي الطوفان ويجرفه مع من يهوى.»

لامرتين في أوج السلطة

وكانت ثورة ٢٤ شباط ١٨٤٨، وهي الثورة التي قلبت الملكية للمرة الثانية، فرأى لامرتين نفسه محاطًا بعواطف الشعب، وما عتَّم أن سُمي وزيرًا للشئون الخارجية وعضوًا لحكومة موقتة. وفي الخامس والعشرين من شهر شباط استطاع لامرتين بخطاب ألقاه في الشعب الثائر أن يُسقط العلم الأحمر، علم الثورة، الذي كانت جماهير غفيرة من الفلاحين والعَمَلة قد حملته إلى قصر الحكومة لترفعه إلى الأبد مكان العلم المثلث الألوان. وهذا الخطاب، الذي أسقط به لامرتين علم الدم، كان أعظم فوز أحرزته الكلمة البشرية؛ ففي تلك الدقيقة العصيبة التي كان لامرتين يلقي بها خطابه في الشعب الثائر استطاع هذا الشاعر الخطيب أن يضارع نبوغ ديموشتين وشيشرون!

لامرتين يُسقط العلم الأحمر

كانت الجماهير التي غزت قصر الحكومة حاملةً العلم الأحمر يراوح عددها بين أربعة أو خمسة آلاف شخص، وكانت قد تدفَّقت من جميع أحياء باريس تلوِّح بالعصي والخناجر والفُئوس والحراب والبنادق، فاحتلَّت جميع قاعات القصر بعد أن اغتصبت الأبواب والمعابر مهدِّدة بصراخ الموت وصليل الحراب وإطلاق البنادق.

قال هنري روبير في محاضرة عن ثورة ١٨٤٨ ألقاها في العشرين من تشرين الثاني من العام ١٩٣٢: «إلا أن الحكومة كانت تملك قوتين تضمن بهما النظام وتدفع الخطر هما: بلاغة لامرتين ومائة ألف رجل من الحرس الوطني.»

وكان لامرتين حاضرًا في تلك الساعة العصيبة، فرُفع على الأكتاف والأذرع، وما هي دقائق قليلة حتى كان أمام الجماهير الساخطة وجهًا لوجه؛ على أن وجوده أمام الثائرين لم يخفِّف من غضب هؤلاء، وعبثًا حاول بعض الوطنيين أن يتوصل إلى إسكات الجماهير لتصغي إلى لامرتين، فكانت تصرخ وتزأر وتهدد بالموت ملوِّحة بالسلاح يعلوه العلم الأحمر.

وبعد جهد جهيد استطاع رفاق الشاعر أن يُصعدوه إلى كرسي مخلَّع دعموه بأيديهم لئلا يهوي به، وإذا بصوت لامرتين يرتفع في وسط الضجيج والصخب واللعنات المتتابعة، فخفَّ الضجيج شيئًا فشيئًا وساد السكوت، واستطرد لامرتين بعد أن امتدح الانتصارات التي أحرزتها الثورة لأجل الجمهورية والديموقراطية، قائلًا: «إني لأؤثر على هذا العَلَم الدموي العَلَمَ الأسود الذي يُرفع أحيانًا في مدينة مدمَّرة. أفتريدون أن يكون علم جمهوريتكم أشأم من علم المدينة المهدومة؟»

فارتفعت أصوات قائلة: «لا، لا! إن لامرتين محق، أيها الصحاب، فلا نبقِ للوطنيين هذا العلم المخيف!» وزأرت أصوات قائلة: «بلى، بلى! هذا عَلَمُنا، هذا عَلَم الشعب الذي انتصرنا به، ففيمَ لا نُبقي بعد النصر الشعارَ الذي صبغناه بدمائنا؟»

فأجاب لامرتين: «أيها الوطنيون، تستطيعون أن تُسقطوا الحكومة، وأن تأمروها باستبدال علم الأمة واسم فرنسا، وإذا كنتم تريدون أن تتوغلوا في ضلالكم، تستطيعون أيضًا أن تفرضوا على الحكومة إنشاء جمهورية حزبية؛ ولكن الحكومة تؤثر الموت على أن تلطِّخ شرفها بالانصياع لكم. أما أنا فلن توقِّع يدي على هذا المرسوم! وإني لأدفع حتى الموت هذا العلم الدموي. فهذا العلم الأحمر الذي تحملونه إلينا لم يَطُف إلا الشان ده مارس مجروفًا بدم الشعب في ٩١ و٩٣، أما العلم المثلث الألوان فقد طاف العالم باسم الوطن ومجده وحريته.»

فارتفعت الأصوات هاتفة للامرتين وللعلم المثلث الألوان. وفي تلك الآونة، تدفَّق إلى القاعة الكبرى التي كان الشاعر يخطب فيها، جمهورٌ جديد لم يكن قد سمع كلام لامرتين، وعلا الصياح من كل جانب، فكان البعض يهتف للعلم الأحمر، والبعض للعلم المثلث الألوان الذي أنقذه الخطيب، وكانت التجاديف والتهديد والأعلام الحمراء الممزقة والأسلحة النارية الملوحة في الجو فوق الرءوس تمثل مشهدًا من أشأم مشاهد الثورة الكبرى، وبينا الجماهير

على ما هي عليه، وثب لامرتين إلى ما بين الحزبين، فصرخ الوطنيون الذين سمعوا لامرتين للمرة الأولى قائلين: «هو ذا لامرتين! افسحوا للامرتين! أصغوا إلى لامرتين!» فزأر الهاجمون قائلين: «لا لا! ليسقط لامرتين! الموت للامرتين! لا كلام ولا خطب! المرسوم أو قتل الحكومة الخائنة!»

إلا أن هذا التهديد لم يُرجع لامرتين عن عزمه، ولم يستطع سبيلًا حتى إلى تغيير لون بشرته، وكانت حراب البعض توشك أن تلامس وجه الخطيب، وفي تلك الآونة الرهيبة شقَّ الصفوف رجلٌ جبار، ممزق الثياب، يقطر الدم من وجهه ومن صدره، وهجم على لامرتين وراح يقبِّله ويعانقه، فأثَّر هذا المشهد في الشعب الثائر فسكن، وارتفع صوت الخطيب قائلًا بهدوئه الطبيعي: «أيها المواطنون، لقد خاطبتكم منذ هنيهة بصفتي مواطنًا مثلكم، فأصغوا إليَّ الآن أخاطبكم بصفتي وزير شئونكم الخارجية. إذا نزعتم مني العلم المثلث الألوان تنزعون مني نصف القوة الخارجية في فرنسا! فأوروبا لا تعرف إلا علم انكساراتها وانتصاراتنا، علم الجمهورية والإمبراطورية، وإذا هي أبصرت العلم الأحمر يخيَّل إليها أنها لا تبصر إلا علم حزب! فيجب علينا أن نرفع على عيون أوروبا علم فرنسا، علم جيوشنا المنتصرة!»

عند هذا خفض الجمهور الثائر أسلحته، وهتف الجميع بصوت واحد: «الثقة! الثقة! لتحيَ الحكومة الموقتة! لتحيَ الجمهورية! ليحيَ لامرتين!»

وفي ٢٧ نيسان جرت الانتخابات في اللجنة الدستورية، فانتُخب لامرتين في عشر مقاطعات بمليون وستمائة ألف صوت؛ وهذا الإجماع في الأصوات كان كافيًا لأن يجعله ديكتاتورًا، وما هو أن دُعي لتأليف الوزارة فألَّفها، على أن يصبح فيما بعد رئيسًا للجمهورية التي كانت الحكومة الموقتة تحل محلها، وبقي ثلاثة أشهر يعالج حكمه الديكتاتوري بالبلاغة السامية.

من القمَّة إلى الهوَّة

على أن خصوم لامرتين ما لبثوا أن راحوا يعملون لإسقاطه، ولكي يتم لهم ذلك لجَئُوا إلى وسائل معيبة لم يخجلوا من استعمالها؛ فقد اتهموه بأنه اختلس من الخزينة مليوني فرنك ليفي ديونه، وأنه ابتاع بمال الخزينة أيضًا بعض أملاك في فرنسا وعقارات في لندن، واتهموه أيضًا بأنه أخَّر الانتخابات ليمدَّ سلطته الديكتاتورية، وأنه عقد مع الحزب الاشتراكي اتفاقية شائنة. ولدى هذه الاتهامات المتواصلة عُقد مجلس للتحقيق رَأَسَه

أوديلون بارو، إلا أن هذا المجلس لم يكلِّف نفسه غسل شيء من هذه الافتراءات التي ذهب لامرتين ضحيتها.

ولكن نفوذ الشاعر بقي كبيرًا في المجلس؛ ففي ٢٧ أيلول لفظ خطابًا اقترح فيه تأليف لجنة تشريعية؛ وفي السادس من تشرين الأول لفظ خطابًا قال عنه بارتو: «إن جلال عباراته يذكِّر ببوسويه»، نصح فيه أن يُعهد بانتخاب رئيس الجمهورية إلى التصويت العام؛ وفي العاشر من كانون الأول ١٨٤٨ جرت الانتخابات لرئاسة الجمهورية، فنال لويس بونابرت ٥٤٣٤٣٢٦ صوتًا من ٧٣٢٧٣٤٥، ولم يَنَل لامرتين سوى ١٧٩١٠ أصوات.

أما دوره السياسي فكان قد انتهى!

لامرتين في عشرين سنة

١٨٤٩–١٨٦٩

كان لويس نابوليون بونابرت يحب لامرتين ويحترمه، فلما قبض على زمام الحكم عرض عليه كرسيًّا في الوزارة، فرفضه وأنشأ جريدة سماها «مستشار الشعب»، وفي الوقت نفسه كان يبعث إلى الصحف بمقالات سياسية عديدة، ويُعِدُّ مؤلَّفًا في تاريخ ثورة ١٨٤٨. ولقد صدر هذا التاريخ في مجلدين كبيرين، ونجح نجاحًا باهرًا جدًّا؛ فقد نفد منه خمسة آلاف نسخة بأربعين يومًا.

وكان لامرتين في حاجة قصوى إلى المال؛ إذ إنه خرج من الحياة السياسية فقيرًا لا يملك ما يسدُّ به عِوَزه، وقد بلغت ديونه أكثر من خمسة ملايين فرنك! فصوِّر له أن الزعامة الأدبية والسياسية ستعود إليه فتنتقم له من المرجفين.

أما كيف بذَّر لامرتين الثروة الطائلة التي حصل عليها — ولا ننسَ أنه ورث عن آبائه أملاكًا واسعة، وأن مؤلفاته؛ لا سيما دواوينه الشعرية و«جوسلين» وتاريخ رحلته إلى الشرق، قد أدت عليه أموالًا حسده عليها معظم الكتبة حتى فيكتور هيغو نفسه — أما كيف بذَّر لامرتين هذه الثروة، وانغمس في ديون تبلغ الملايين، فقد اختلف كثيرون على إيضاح هذه النقطة؛ فمنهم من قال إن الدور السياسي الذي مثَّله قد كلَّفه مبالغ لا يستهان بها، ومنهم من قال إنه كان يبسط يده إلى درجة الإفراط والتبذير ويعيش عيشة الأمراء والملوك، ولم يكن يُمسك كفَّه عن المساكين فيهبهم بدون تروٍّ ولا حساب؛ على أن المسيو رينه دوميك الذي اهتم بإيضاح هذه النقطة فاستشار بعض وثائق اهتدى إليها، قال: «لقد أغرق البعض في وصف حياة البذخ التي عُزيت إلى لامرتين ... فالمؤلَّف الذي وضعه

عن رحلته إلى الشرق قد درَّ عليه أضعاف ما كلَّفته هذه الرحلة ... على أن سبب فقره وانغماسه في تلك الديون البالغة الملايين يعود إلى تعلُّقه باقتناء الأملاك وحراثة الأرض، فقد صرف جهودًا كبيرة في شراء السهول والحدائق وحراثتها ونقبها، وكثيرًا ما كان يبتاع الغلال بأثمان لا توازي أثمانها الحقيقية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان ميالًا إلى المقامرة والمضاربة ...»

فالانتين ده سيسيا

عندما تُوفيت جوليا، وحيدة الشاعر، أُسقط في يده واستسلم ليأس شديد، وكان بحاجة إلى أن يُسند آلامه إلى قلب يفهمه ويشعر بشعوره، ولقد وجد هذا القلب في ابنة شقيقته فالانتين ده سيسيا التي وُلدت في العام ١٨٣٠، وهو العام الذي صدر فيه ديوان لامرتين الأول «التأملات الشعرية».

وفالانتين ده سيسيا مثَّلت دورًا هامًّا في حياة خالها الشاعر، فقد لبسته إلى آخر حياته ورفضتِ الزواج لتبقى بالقرب منه تؤاسيه في مصائبه وتبسم له في لياليه؛ على أن الناس أبوا إلا أن يروا في هذا الحب بين الخال وابنة أخته عشقًا مشبوهًا تناولوه بفلتات الألسن. ولكن أيُّ حرج على الرجل أن يضمر لقريبته حبًّا صوفيًّا كذلك الحب الذي أضمره أوديب الملك لابنته أنتيغون؟ إلا أن الفطرة البشرية كثيرًا ما تزوغ عن طبيعتها، فتخدع الإنسان وتجنح به إلى الشر.

في العام ١٨٦٣، عندما تُوفيت زوجة الشاعر، أراد هذا الأخير أن تكون فالانتين وارثته الوحيدة فتزوَّجها سرًّا، وكان أن هذا الزواج أثار الشبهة في عقول الناس فراحوا يؤيدون مزاعمهم الباطلة.

رفائيل

في العام ١٨٤٩ أصدر لامرتين قصتين هما: «غرازييلا»، وهي التي عرضنا لها في بدء هذا الكتاب، و«رفائيل»، وهي صفحات حب عرض فيها الشاعر حبَّه العظيم لمدام شارل أو جوليا بوشو، وكان قد كتب هذه القصة قبل سنتين على أن لا ينشرها في حياته، ثم عدل عن عزمه هذا إلى عزم آخر، وهو أن ينشرها على نفقته الخاصة. ولَّما صدرت هذه القصة الدامية نجحت نجاحًا كبيرًا جدًّا ودرَّت عليه مبالغ طائلة.

وحي الماضي

على أن هذه المبالغ لم تكن كافية لسد حاجة لامرتين ودائنيه معًا، فكان عليه أن يبيع ما ورثه عن آبائه؛ ففي شهر أيلول من العام ١٨٤٩ أذاع في جريدته «مستشار الشعب» عزمه على بيع قصر ميللي وحدائقه المقدسة. قال: «إن فرنسا صماء، أما أنا فقد بدأتُ ببيع ميللي ومونسو، وأشعر بأني أصبحت ضيفًا في بيتي.»

على أن رجاءً واحدًا بقي له، وهو أن يستثمر مؤلفاته السابقة، وكان حق الطبع قد عاد إليه، فصحَّت عزيمته على أن يطبع مؤلفاته على نفقته الخاصة، فجمع من شعره «التأملات» و«الإيقاعات الشعرية» و«موت سقراط» و«شيلد هارولد» و«جوسلين»، ولم يجمع من نثره إلا «الرحلة إلى الشرق» وأجمل خطبه السياسية. ولكي يدفع الجمهور إلى اقتناء هذه الطبعات الجديدة مهرها جميعها بمقدمات.

الرحلة الثانية إلى الشرق

كان السلطان عبد المجيد قد وهب لامرتين — جزاءً له على إنشاده الشرق في شعره وفي كتابه عن الشرق — قطعةً من الأرض مساحتها عشرون ألف هكتار، كائنةً في آسيا الصغرى على مقربة من إزمير، فلمَّا ضاقت الحياة في وجهه، أخذ يحلم باستثمار هذه الأرض؛ على أنه لم يكن قد زارها بعد، فصحَّت عزيمته على القيام برحلة ثانية إلى الشرق. وفي ٢١ حزيران ١٨٥٠ سافر إلى تركيا تصحبه زوجته وابنة شقيقته فالانتين، وصديقان هما ده شانبو وده شانبوران.

على أن استثمار هذه الأرض كان يقتضي رأسمالًا كبيرًا، وإذ لم يقع الشاعر على من يسلِّفه المبلغ المطلوب، أعاد الأرض إلى السلطان على أن يدفع له هذا الأخير بدلًا عنها دخلًا سنويًّا … ويظهر أن السلطان لم ينزل عند هذه الرغبة، فعاد لامرتين إلى فرنسا صاحبًا معه سِفرًا جديدًا عن رحلته الثانية.

الأشغال الأدبية الشاقة

على أن هوَّة الديون كانت تعمق من يوم إلى يوم حتى أصبحت لجَّة، وكان على الشاعر أن يكتب ويكتب ويكتب ليفي بعضًا من هذه الديون ويحافظ على بسطة عيشه؛ وما هي بضع سنوات حتى نشر «تاريخ الجيروندين» و«تاريخ الانقلاب» و«تاريخ تركيا»

و«تاريخ روسيا»، وبقي ثلاث عشرة سنة — من العام ١٨٥٦ إلى ١٨٦٩؛ أي إلى آخر حياته — يُصدر كلَّ شهر مجلة أدبية يحررها وحده.

أما المجلة هذه فكانت تتضمن تاريخ الأدب الفرنسي؛ ولقد جُمعت في ثمانية وعشرين مجلدًا، يحتوي كلٌّ منها خمسماية صفحة، درس فيها الشاعر عددًا كبيرًا من روائع الأدب العالمي؛ كأدب دنتي وله تاس وشكسبير وهوميروس وشيشرون وتاسيت وأريستوت وميكل أنجلو وموزار وغيرهم، وكما درس أدب العصور الماضية هكذا درس أدب عصره بمطلق الحرية.

لامرتين في سنيه الأخيرة

في العام ١٨٦٠ نشر لامرتين جميع مؤلفاته على نفقته الخاصة في واحد وأربعين مجلدًا؛ على أن تلك الجهود المتواصلة التي كان يبذلها لم تُبلِغه إلى الغاية المنشودة؛ فالدائنون بقوا يرهقونه بطلباتهم المتواصلة، وفي العام ١٨٦١ باع قصر ميللي وأتبعَ به قصر مونسو، ولم يُبقِ من جميع الأملاك التي كان يحبُّها إلا قصر سان بوان. وكان بعضٌ من أصدقائه قد باشر جمع الإعانات المالية لإنقاذه مما هو فيه، إلا أنه لم يفلح؛ فالشعب كان قد أعرض عنه وحاد عن طريقه. على أن نابوليون الثالث كان لا يزال يعطف على الذي أنقذ البلاد في وقتها العصيب ورفع العلم المثلث الألوان إلى الأبد؛ ففي العام ١٨٦٧ اقترح على المجلس التشريعي مشروعًا وطنيًّا يمنح لامرتين خمسة وعشرين ألف فرنك دخلًا سنويًّا يُعطى من مال الخزينة.

لامرتين على فراش الموت

بقي لامرتين يواصل إصدار مجلته الأدبية، إلا أن جَلَده ما لبث أن خار وضعف عزمه؛ ففي العام ١٨٦٨ شعر بتعب شديد يستولي عليه، وراح يغرق في بُحران عميق، وكانت فالانتين، مؤاسيته الوحيدة، تقرأ له كل ليلة رسائل شيشرون، ورسائل فولتير، وتاريخ القنصلية والإمبراطورية.

وأقبل الموت عذبًا بطيئًا، فبعد نزعٍ دام أيامًا فاضت روح هذا الرجل العظيم، وكانت عيناه محدِّقتين إلى صليب أرسلته إليه «إلفير» قبل موتها.

قال صديقه ديكونيه: «ترك الحياةَ ببساطةٍ ومن غير أن يودِّعها بسوى ابتسامة باسلة. وكان مضَّجعًا على سرير كبير من خشب الورد ومسندًا رأسه إلى كتف فالانتين.»

مأتم لامرتين

كان الشاعر قد أوصى فالانتين بأن يُدفن ببساطة وهدوء، فلما فاضت روحه، رفضت فالانتين ده سيسيا أو ده لامرتين نزولًا على إرادة خالها أو زوجها، أن تجري له المآتم الشعبية التي كان الإمبراطور قد منحها لجثمان الشاعر، وجيء بالجثة إلى سان بوان من غير أن يواكبها إلا جمعٌ قليل لا يجاوز ثلاثين شخصًا، بينهم اثنان من أعضاء المجمع العلمي، هما جول ساندو وإميل أوجيه، وثلاثة من الكتبة، هم ده لابراد وإسكندر ديماس الابن ولويس راتيسبون، ورجل واحد من السياسيين، هو إميل أوليفيه. أما الجمهوريون والحكومة الموقتة التي كان الشاعر رئيسها فلم يحضر واحد منهم. وهكذا مضى الرجل العظيم إلى مقرِّه الأخير.

على أن الموكب لم يكد يصل إلى ماكون وإلى سان بوان حتى هُرعت الجماهير الغفيرة لاستقباله، فالشعب الذي أحبَّه لامرتين في تينك المدينتين تظاهر حول نعشه بكل ما في قلبه من الشعور والنبل.

قال إميل أوليفيه في رسالة بعثها إلى إميل ده جيراردين، ونشرتها الصحف في اليوم التالي ٤ آذار ١٨٦٩ ما يلي: «كان مأتم عزيزنا لامرتين جديرًا به ... ففي الصباح هُرع جميع سكان ماكون إلى المحطة ليستقبلوا ميتًا ذلك الذي أُعجبوا به وهو حي. وعند وصول الجثمان، مضوا به إلى الكنيسة ولم يغادروه إلا في طرف المدينة. وإذ هو في الطريق إلى سان بوان، كان سكان القرى يهبطون لاستقباله يتقدَّمهم الكهنة، وكان كثير منهم يهوون على التابوت يقبِّلونه ويعانقونه في وسط التأوهات والحسرات. أما النهار فكان جميلًا، وكانت الطبيعة فرحة مغبوطة برؤيتها شاعرها في مأمن من الأتعاب والآلام.»

خاتمة

وأصدقُ ما رأينا أن نختم به هذا الكتاب كلمة النَّقَّاد الفرنسي دورفيللي في الشاعر العظيم، قال: «يجب أن نقول للذين تملَّكهم كبرياء نثرهم: عندما تموت زعقات السياسة المعاصرة لا يبقى حيًّا من لامرتين إلا شعره.

شعره! ... الشعر! ... والشعر هو أجمل ما في لغات البشر أية كانت؛ فلا التصوير ولا الموسيقى ولا التماثيل، من الحجر كانت أو من النثر، توازي ذلك الشيء المعبود: الشعر الجميل! وبالشعر الجميل مَلَك لامرتين على العرش في ماضٍ ليس ببعيد عنا، وسيبقى مالكًا عليه في المستقبل البعيد ... مهما بعد! فلا أعرف في عصر من العصور رجلًا أعظم من لامرتين في مصافِّ الشعراء؛ فقد حمل عصره على كتفيه ليعبر به نهر الشاعرية الكاذبة التي كانت تتمرغ فيه، واستطاع بنَفَس واحد أن يرفع عصره إلى سماء الشعر الصحيح الأزلي، إلى السماء العالية المسكرة، إلى سماءٍ كانت فرنسا قد نسيَتْها قبل أن جاء لامرتين.

آه! لم يكن شأن لامرتين كما كان شأن ماليرب! فهو لم يُحدث ثورة في الإنشاء أو في الوزن والقافية، بل أحدث ثورة في المخيلات والقلوب! كان الشعر في فرنسا قد مات بموت راسين، وكان القرن الثامن عشر إذا قرأ شعرًا جميلًا يقول: هذا جميل كالنثر. وفي عهد الإمبراطور حلَّت البطولة والفروسية محل الشعر، وإن تكن البطولة شعرًا فقد كانت تُنشَد بلسان المدفع وحده. ولكن عندما سكت المدفع ارتفع صوت سماوي لم يكن قد سُمع قبل ذلك العهد حتى في أناشيد راسين نفسه، وكان ذلك الصوت: «التأملات»؛ فالتأملات قد نجحت ... لا، لا، لندع مثل هذه التعابير المبتذلة، لم يكن ثمة نجاح، بل سحر فجائي عظيم.

لقد استطاع شاتوبريان أن يطرح الأفكار الثورية من النافذة كما طرح بونابرت ممثلي الأمة، إلا أن فوز لامرتين كان أصدق وأعظم؛ لأنه انبثق من نبوغ لامرتين. كان روح النصرانية يرافق شاتوبريان، أما لامرتين فلم يكن يرافقه إلا روحه.

ثمة شعراء يموتون من غير أن يموتوا، فيصبحون توابيت حية لشعرهم الميت، وثمة أنهار من الشعر تتدفق كما تتدفق أنهار الجنة، ولكنها لا تلبث أن تغور وتغيض على مسافة أربع أقدام من مصبِّها، إلا أن لامرتين، لامرتين الذي لا ينضب، بقي طوال حياته شاعر «التأملات» الكبير.»

هنداوي